

المُسْتَبَقَاتُ

المربي

مِنْ كِتَابِ

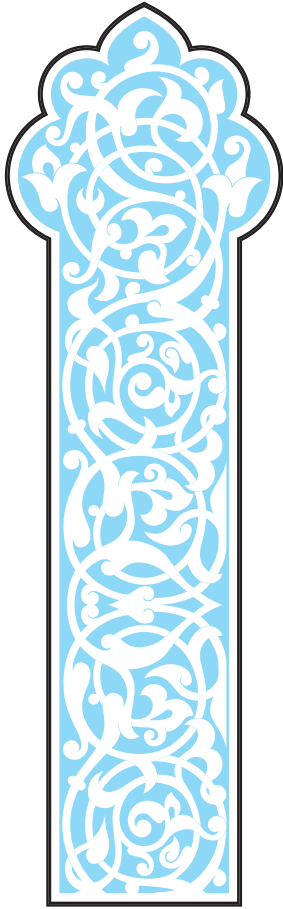
«الشِّفَا بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)»

إعداد

مركز المربي

لِلإِسْتِشَارَاتِ التَّرْبَوِيَّةِ وَالتَّعْلِيمِيَّةِ





المُسْتَبَقَاتُ

مِنْ كِتَابِ
«الشَّافِ بَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى ﷺ»

المُنتَقَى

مِنْ كِتَابِ
«الشَّافِي تَعْرِيفُ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)»

لكل مسلم حق طبع هذا الكتاب دون تغيير

رقم الطبعة الثانية

سنة الطبع ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

عدد الصفحات ٣٢٨ صفحة

المقاس ٢٤ × ١٧

رقم الإيداع ١٤٣٦/٨٠٨٤

I.S.B.N 978-603-01-8990-8 الترخيم الدولي

موزع معتمد



للطبع والنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية - الإسكندرية

☎ +201220482504

☎ +201003225280

e-mail: prdise2030@gmail.com

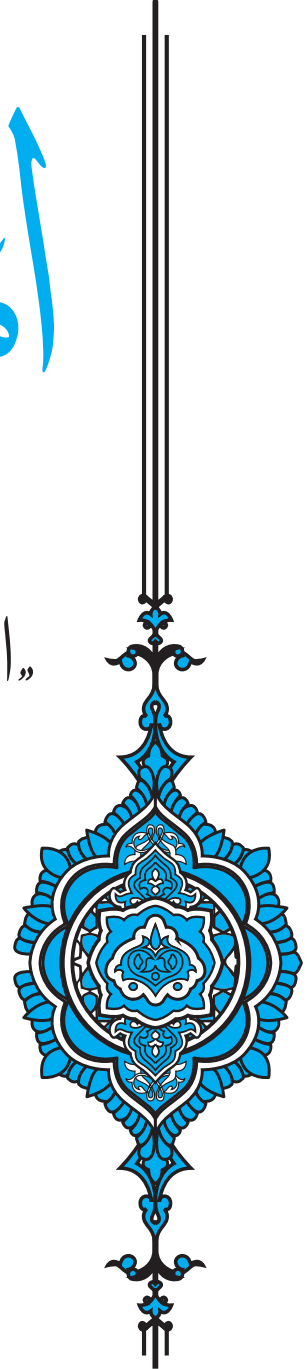


markaz.almurabbi@gmail.com

المُسْتَبَقُ

مِنْ كِتَابِ
«الشِّفَا بِتَعْرِيفِ حُقُوقِ الْمُصْطَفَى (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ)»

إِعْدَادُ
مَكْتَبَةِ الْمَدِينَةِ
لِلإِشْرَافِ عَلَى التَّوْبِيغِ وَالتَّعْلِيمِ





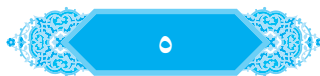
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



تقديم

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وجعله خاتماً لأنبيائه ورسله، وجعل الكتاب الذي أنزله معه مهيمناً على كل كتاب قبله، وصلى الله وسلّم على سيدنا وقدوتنا رسول الله الذي أعلى الله شأنه بتزكية خلقه ورفع ذكره، حيث قال جل شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، وعلى أصحابه كلهم وتابعيهم بإحسان، صلاةً وسلاماً دائمين ما كور الليل على النهار وكور النهار على الليل.

أما بعد فإن مقام سيدنا محمد ﷺ في قلوب المؤمنين أعظم مقام؛ إذ هو الوساطة بينهم وبين ربهم في تبليغ وحى الله سبحانه لعباده، وهو سيد ولد آدم، أرسله الله رحمة للعالمين، وله الشفاعة الكبرى يوم البعث، وخصه ربنا سبحانه بصفات وخصائص لم يعطها أحداً من الأنبياء قبله، بل لا يؤمن أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين كما جاء في الصحيح.



وقد ألف كثير من علماء الإسلام في صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنصوص عليها في الوحي، أو المنقولة عمّن صحبوه أو شاهدوه، وفي حقوقه وما يجب على المؤمنين به من طاعته وتبجيله وتوقيره، وما يتعلّق بهذه من حرمة جنابه، وحكم من نال منه أو عرض به، ومن أشمل ما صنّف في ذلك كتاب «الشفاء بتعريف حقوق المصطفى» للعلامة القاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وهو كتابٌ جليل القدر، يبيّن فيه القاضي ما أَرادَه وقرّر، وجمع فيه فأكثر حتّى إنه ليذكر بعض الواهيات.

ولما صار غالب أهل زمننا يشقّ عليهم التطويل لما يقرؤون انتقي هذا الكتاب منه ليكون أقرب مُتناوَلًا فيسهل إدراك مرامه واستيعاب أخباره وأحكامه، لا سيما ونحن في زمنٍ نواجه فيه حملة شرسة منكّرة سرًّا وعلانية على شريعة الله، وإنّ من تعظيم الله سبحانه تعظيم شريعته ومعرفة حقّ نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جاء بها من عند الله.

وقد جرينا في العمل على انتقاء الصالح من الروايات مع حذف الأسانيد والمكرّر من الأخبار إلا ما اقتضت الحال إبقاءه، وعلى الاقتصار على ما كان ظاهر الدلالة من الآيات أو تفسيرها، وعلى ما له تعلّق مباشر بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاكتفاء في الخلاف بالحقيقيّ مما لا يُثير إشكالاً لدى عموم الناس.

وقد اختصرنا بعض ما يذكره المؤلّف من مسائل وبعض ما أطنب فيه، وأوضحنا معنى ما رأينا أنه يفتقر إلى إيضاح من مفردات.

هذا وقد استعنا بنسختين نفيستين من نسخ الكتاب المخطوطة، وهما نسخة جامعة ميتشيغان ونسخة جامعة برنستون وذلك في مواضع، وحرصنا أن يخرج الكتاب على ترتيب رجونا أن يكون حسناً، فما هو إلا تذكير بالأصل، ونسأل الله تبارك اسمه إذ أعان على إتمام هذا العمل أن يرحم القاضي عياضاً رحمة واسعة لقاء ما كتب في جناب النبي ﷺ وجمع، وأن ينفع بهذا المنتقى من شاء من عباده، وطوبى لمن ارتفع عند الله قوله وعمله.



المشرف العام

د. يحيى إبراهيم الجيبي

سلخ ربيع الأول ١٤٤٢

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله المنفرد باسمِهِ الأسمى، الذي ليس دونه مُنتَهَى ولا وراءَهُ مَرْمَى، وسع كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا، وبعث فيهم رسولًا من أَنْفُسِهِمْ أَنْفُسَهُمْ عربًا وعَجَمًا، وأَرْجَحَهُمْ عَقْلًا وحِلْمًا، وأَوْفَرَهُمْ عِلْمًا وفَهْمًا، وأَقْوَاهُمْ يَقِينًا وعِزْمًا، وأَشَدَّهُمْ بِهِمْ رَأْفَةً ورُحْمًا، وآتاه حِكْمَةً وحُكْمًا، وفتح به أَعْيُنًا عُمْيًا وقلوبًا غُلْفًا وآذَانًا صُمًّا، فأَمَنَ به وعَزَّرَهُ ونَصَرَهُ مَنْ جعل الله له في مَغْنَمِ السَّعَادَةِ قَسَمًا، وكَذَّبَ به وصدف عن آيَاتِهِ مَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ الشَّقَاءَ حَتْمًا، ومن كان في هذه أَعْمَى فهو في الآخِرَةِ أَعْمَى، صلى الله تعالى عليه صلاةً تنمو وتُتِمَّى، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليماً.

أما بعد فلا يخفى على من مارس شيئاً من العلم أو خُصَّ بأدنى لمححةٍ من الفهم تعظيمُ الله قدرَ نبينا ﷺ وخصوصُهِ إياه بفضائلٍ ومحاسنٍ. فمنها ما صرَّح به تعالى في كتابه وخُصَّ العباد على التزامه؛ فكان **جَلَّ جَلَالُهُ** هو الذي تَفَضَّلَ وأولى، ثم طهر وزكَّى، ثم مدح بذلك وأثنى، ثم أثاب عليه الجزاء الأوفى، فله الفضل بدءاً وعوداً، والحمد أولى وأخرى.

ومنها ما أبرزه للعِيان من خلقِهِ على أتمِّ وجوه الكمال والجلال، ومن تخصُّصِهِ بالمحاسنِ الجميلة والأخلاق الحميدة والمذاهب الكريمة والفضائلِ العديدة، وتأييده بالمعجزات الباهرة والبراهين الواضحة

والكرامات البيّنة التي شاهدها مَنْ عاصره، ورآها مَنْ أدركه، وعِلِمَها عِلْمٌ
يقينٌ مَنْ جاء بعده، حتى انتهى علم حقيقة ذلك إلينا، وفاضت أنوارُه علينا،
صلى الله عليه وسلّم كثيرًا.



البَابُ الْأَوَّلُ

في ثناء الله تعالى
عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وإظهاره عظيم
قدره لديه



الباب الأول

في ثناء الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم وإظهاره عظيم قدره لديه



اعلم أن في كتاب الله العزيز آيات كثيرة مفصحةً بجميل ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم وعد محاسنه وتعظيم أمره وتنويه قدره، اعتمدنا منها على ما ظهر معناه وبان فحواه، وجمعنا ذلك في فصول:

فصل

فيما جاء من ذلك بمجىء المدح والثناء وتعداد المحاسن

كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. وقرئ شاذاً ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء.

أعلم الله تعالى العرب أنه بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يعرفونه ويتحققون مكانه ويعلمون صدقه وأمانته، فلا يتهمونه بالكذب وترك النصيحة لهم لكونه منهم، وأنه لم تكن في العرب قبيلة إلا ولها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولادة أو قرابة، وهو عند ابن عباس رضي الله عنهما وغيره معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وكونه من أشرفهم وأرفعهم وأفضلهم على قراءة الفتح، هذه نهاية المدح، ثم وصفه بعد بأوصاف حميدة، وأثنى عليه بمحامد كثيرة، من حرصه على هدايتهم ورؤسدهم وإسلامهم،

وشدة ما يُعْتَبِرُهُمْ ويَضُرُّهُمْ في دنياهم وأُخراهم وعَزَّتْهُ عليه، ورَأْفَتُهُ ورحمته بمؤمنينهم.

قال بعضهم: أعطاه اسمين من أسمائه: رؤوف رحيم.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية، وفي الآية الأخرى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ الآية.

وروي عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قال: «نسباً وصهرًا وحسباً، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح»^(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ قال: من نبيٍّ إلى نبيٍّ حتى أخرجتك نبياً^(٢).

وقد زين الله تعالى محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزينة الرحمة، فكان هو وجميع شمله وصفاته رحمةً على الخلق. ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فكانت حياته رحمةً ومماته رحمةً، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«حياتي خيرٌ لكم وموتي خيرٌ لكم»^(٣)، وكما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

(١) أوردته أبو حيان في تفسيره «البحر المحيط» (٤١٧/٣)، وعزاه السيوطي لابن مردويه. الدر المنثور (٣٢٧/٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢٥/١)، والبخاري (١١٠/٣).

(٣) أخرجه البخاري في مسنده (٣٠٨/٥).

«إذا أراد الله رحمةً بأمةٍ قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً»^(١).
وقال السمرقندي^(٢): ﴿رَحْمَةٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يعني للجن والإنس، قيل:
لجميع الخلق؛ للمؤمن رحمةً بالهداية، ورحمةً للمنافق بالأمان من القتل،
ورحمةً للكافر بتأخير العذاب^(٣).

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: هو رحمةٌ للمؤمنين والكافرين؛ إذ عوفوا مما
أصاب غيرهم من الأمم المكذبة^(٤).

وقد سماه الله تعالى في القرآن في غير هذا الموضع نوراً وسراجاً منيراً،
فقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، وقال
تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ
وَسِرَاجاً مُنِيراً.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ إلى آخر السورة، شَرَحَ:
وسَّعَ، والمراد بالصدر هنا: القلب، قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: شرحه بنور
الإسلام، وقال سهل: بنور الرسالة، وقال الحسن: ملأه حكماً وعِلماً،
﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ﴾ (٢) أَلَيْتَ أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ قيل: ما سلف من ذنبك،
يعني قبل النبوة، وقيل: أراد ثِقَلَ أيام الجاهلية، وقيل: أراد ما أثْقَلَ ظَهْرَهُ

(١) صحيح مسلم (١٧٩١/٤).

(٢) نصر بن محمد بن إبراهيم أبو الليث السمرقندي الفقيه الحنفي المفسر، صاحب مؤلفات مشهورة،
مات سنة ٣٧٥ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (٣٢٢/١٦)، تاريخ الإسلام (٤٢٠/٨).

(٣) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي (٤٤٥/٢).

(٤) المصدر السابق.

من الرسالة حتى بلغها، حكاها الماوردي والسلمي^(١). ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال يحيى بن آدم: بالنبوة، وقيل: إذا ذُكِرَتْ ذُكِرْتَ معي في قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقيل في الأذان والإقامة.

وهذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه ﷺ على عظيم نعمة لديه وشريف منزلته عنده وكرامته عليه بأن شَرَحَ قلبه للإيمان والهداية، ووسَّعَه لَوَعِيَّ العلم وَحَمَلَ الحكمة، ورفع عنه ثَقَلَ أمور الجاهلية عليه، وبَغَّضَه لِسِيرِهَا وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله، وحط عنه عُهْدَةَ أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نُزِّلَ إليهم وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رُتْبَتِهِ ورفعة ذكره وقرانه مع اسمه اسمه.

قال قتادة: رفع الله تعالى ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وروى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: إن ربي وربك يقول: تدري كيف رَفَعْتُ ذِكْرَكَ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إذا ذُكِرْتَ ذُكِرْتَ معي»^(٢).

ومن ذكر النبي ﷺ معه تعالى أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه فقال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فجمع بينهما بواو العطف المُشْرَكَّة، ولا يجوز جمع هذا الكلام في غير حقه ﷺ.

(١) انظر: النكت والعيون للماوردي (٢٩٧/٦)، وحقائق التفسير للسلمي (٤٠٤/٢).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٥٢٢/٢)، وابن حبان في صحيحه (١٧٥/٨).

عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ما شاء الله ثم شاء فلان»^(١).

قال الخطابي: أرشدهم صلى الله عليه وسلم إلى الأدب في تقديم مشيئة الله تعالى على مشيئة من سواه، واختارها بـ«ثم» التي هي للتراخي بخلاف الواو التي هي للاشتراك^(٢).

ومثله الحديث الآخر: أن خطيباً خطب عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «بئس خطيب القوم أنت، قم - أو قال - اذهب»^(٣).

قال أبو سليمان: كره منه الجمع بين الاسمين بحرف الكناية لما فيه من التسوية، وذهب غيره إلى أنه إنما كره له الوقوف على «يعصهما»^(٤).

وقول أبي سليمان أصحُّ لما روي في الحديث الصحيح أنه قال: ومن يعصهما فقد غوى^(٥)، ولم يذكر الوقوف على «يعصهما».



(١) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٥)، وأحمد (٣٨/٣٠٠، ٣٦٤، ٣٩٦)، وغيرهما.

(٢) معالم السنن (٤/١٣٢).

(٣) صحيح مسلم (٢/٥٩٤)، ولفظ المصنف من سنن أبي داود (١/٢٨٨).

(٤) معالم السنن (٤/١٣١).

(٥) صحيح مسلم (٢/٥٩٤).

فصل في وصفه تعالى له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝﴾.

جمع الله تعالى له في هاتين الآيتين ضروبًا من رُتب الأثر، وجُملة أوصافٍ من المدحة، فجعله شاهدًا على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وهي من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومبشرًا لأهل طاعته، ونذيرًا لأهل معصيته، وداعيًا إلى توحيده وعبادته، وسراجًا منيرًا يَهْتَدَى به للحق.

عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: أجل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أنت عبيدِي ورسولي، سَمَّيْتُكَ المتوكِّل، ليس بفظٌ ولا غليظ، ولا سخَّابٌ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء: بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا»^(١).

(١) صحيح البخاري (٦٦/٣).

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الآية، وقد قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ بِدَلِيلٍ مِنْ رَبِّكَ فَقَدْ خَلَقْنَا مِنْ قَبْلِكَ أَقْوَامًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهٌ يَخْشَوْنَ﴾ الآية، قال السمرقندي: ذكرهم الله تعالى منته أنه جعل رسوله ﷺ رحيماً بالمومنين، رؤوفاً، لين الجانب، ولو كان فظاً خشناً في القول لتفرقوا من حوله، ولكن جعله الله تعالى سمحاً، سهلاً، طلقاً، براً، لطيفاً، هكذا قاله الضحاك^(١).

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. قال أبو الحسن القاسبي^(٢): أبان الله تعالى فضل نبينا ﷺ وفضل أمته بهذه الآية، وفي قوله في الآية الأخرى: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَسَطًا﴾ أي: عدولاً خياراً، ومعنى هذه الآية: وكما هديناكم فكذلك خصصناكم وفضلناكم بأن جعلناكم أمةً خياراً عدولاً لتشهدوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام على أمهم ويشهد لكم الرسول بالصدق.

قيل: إن الله جَلَّ جَلَالُهُ إذا سأل الأنبياء: هل بلغتم؟ فيقولون: نعم، فتقول أمهم: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فتشهد أمة محمد ﷺ للأنبياء، ويزكيهم النبي ﷺ، وقيل: معنى الآية أنكم حُجَّةٌ على كل من خالفكم، والرسول ﷺ حُجَّةٌ عليكم، حكاه السمرقندي^(٣).

(١) بحر العلوم (١/ ٢٦٠).

(٢) علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المالكي الفقيه. قال الذهبي: «وكان حافظاً للحديث وعلمه ورجاله، فقيهاً أصولياً متكلماً، مصنفاً، صالحاً متقناً». مات سنة ٤٠٣ هـ. تاريخ الإسلام (٩/ ٦١).

(٣) بحر العلوم (١/ ١٠٠).

فصل فيما ورد من خطابه تعالى مَورد المِلاطفة والمِبرّة

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾. قال أبو محمد مكي: قيل هذا افتتاح كلام بمنزلة: أصلحك الله، وأعزك الله. وقال عون بن عبد الله: أخبره بالعفو قبل أن يخبره بالذنب. وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبره به ما ينقطع دون معرفة غايته نيّاط القلب.

ويجب على المسلم المجاهد نفسه الرّاض بزمام الشريعة خلّقه أن يتأدب بآداب القرآن في قوله وفعله ومعاطاته ومحاوراته، فهو عنصر المعارف الحقيقية وروضة الآداب الدينية والدنيوية، وليتأمل هذه المِلاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب المنعم على الكل المستغني عن الجميع ويستثّر ما فيها من الفوائد، وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثمّ ذنب.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾. قال بعضهم: عاتب الله الأنبياء صلوات الله عليهم بعد الزلات، وعاتب نبينا ﷺ قبل وقوعه، ليكون بذلك أشد انتهاءً ومحافضةً لشرائط المحبة، وهذه غاية العناية، ثم انظر كيف بدأ بثباته وسلامته قبل ذكر ما عتبه عليه وخيف أن يركن إليه؛ ففي أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته.

ومثله قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ الآية. قال عليٌّ رضي الله عنه: قال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب بها جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ الآية.

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كذبه قومه حزن، فجاءه جبرئيل عليه السلام فقال: ما يحزنك؟ قال: كذّبي قومي، فقال: إنهم يعلمون أنك صادق، فأنزل الله تعالى الآية ^(١).

ففي هذه الآية منزعٌ لطيف المأخذ من تسليته تعالى له صلى الله عليه وسلم وإلطافه في القول بأن قرر عنده أنه صادق عندهم وأنهم غير مكذّبين له، معترفون بصدقه قولاً واعتقاداً، وقد كانوا يسمونه قبل النبوة الأمين، فدفع بهذا التقرير ارتماض ^(٢) نفسه بسمة الكذب، ثم جعل الذم لهم بتسميتهم جاحدين ظالمين، فقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، إذ الجحد إنما يكون ممن علم الشيء ثم أنكره كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾، ثم عزّاه وأنسه بما ذكره عمن قبله ووعدته بالنصر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، فمن قرأ ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بالتخفيف فمعناه لا يجدونك كاذباً، وقال الفراء والكسائي: لا يقولون إنك كاذبٌ، وقيل: لا يحتجّون على كذبك ولا يشبّونه، ومن قرأ بالتشديد فمعناه لا ينسبونك إلى الكذب، وقيل: لا يعتقدون كذبك.

(١) تفسير الطبري (١١/٣٣٣).

(٢) ارتضى فلان من كذا وكذا، إذا اشتد عليه وأغضبه.

ومما ذكر من خصائصه وبرّ الله تعالى به أن الله تعالى خاطب جميع الأنبياء
بأسمائهم، فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا موسى، يا داود، يا عيسى،
يا زكريا، يا يحيى، ولم يخاطب هو إلا بصفته: يا أيها الرسول، يا أيها النبي،
يا أيها المزمّل، يا أيها المدثر.



فصل في قسمه تعالى بعظيم قدره صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. هذا قسمٌ من الله جلَّ جلاله بمدة حياة محمد صلى الله عليه وسلم، وأصله ضمُّ العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال، ومعناه: وبقائك يا محمد، وقيل: وعيشك، وقيل: وحياتك، وهذه نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: ما خلق الله تعالى وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وما سمعت الله تعالى أقسم بحياة أحدٍ غيره^(١). وقال تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، قال النقاش^(٢): لم يقسم الله تعالى لأحدٍ من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا له.



(١) تفسير الطبري (١٧/١١٨).

(٢) هو أبو بكر محمد بن الحسن الموصلي نزيل بغداد، توفي سنة ٣٥١هـ. ينظر: تاريخ بغداد (٢/١٩٨-٢٠١). وتفسيره المسمى بشفاء الصدور يحققه طلاب الدراسات بجامعة الشارقة.

فصل في قسمه تعالى له ﷺ لتحقيق مكانته عنده

قال جل اسمه: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾. تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى لنبيه ﷺ وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة وجوه:

الأول: القسم له عما أخبره به من حاله بقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝﴾ وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾ أي: ما تركك وما أبغضك، وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝﴾ قال ابن إسحاق: أي ما لك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا، وقال سهل: أي ما ادّخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خيرٌ لك مما أعطيتك في الدنيا.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝﴾ وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة. قال ابن إسحاق: يرضيه بالفَلَج^(١) في الدنيا والثواب في الآخرة، وقيل يعطيه الخوض والشفاعة.

(١) قال خليل بن أحمد: والفَلَج: الظفر بمن تخاصمه.

الخامس: ما عده تعالى عليه من نعمه وقرّره من آلائه قبّله في بقية السورة من الهداية والإغناء والإيواء.

السادس: أمره بإظهار نعمته عليه وشكر ما شرّفه به بنشره وإشادة ذكره بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فَإِنْ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ التَّحَدَّثَ بِهَا، وهذا خاصٌّ له عامٌّ لأُمَّته.

وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾. تضمنت هذه الآيات من فضله وشرّفه العِدَّةُ^(١) ما يقف دونه العَدُّ، وأقسم جل اسمه على هداية المصطفى وتنزيهه عن الهوى وصدقه فيما تلا وأنه وحيُّ يوحى أوصله إليه عن الله جبرئيل وهو الشديد القُوَى.

ثم أخبر تعالى عن فضيلته بقصة الإسراء وانتهائه إلى سدره المنتهى وتصديق بصره فيما رأى وأنه رأى من آيات ربه الكبرى.

وقد نبّه على مثل هذا في أول سورة الإسراء، ولما كان ما كاشفه ﷺ من ذلك الجبروت وشاهده من عجائب الملكوت لا تحيط به العبارات ولا تستقلُّ بحمل سماع أدناه العقول رمز عنه تعالى بالإيماء والكناية الدالة على التعظيم، فقال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، وهذا النوع من الكلام يسميه أهل النقد والبلاغة بالوحي والإشارة، وهو عندهم أبلغ أبواب الإيجاز، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾، انحسرت الأفهام عن تفصيل ما أوحى وتاهت الأحلام في تعيين تلك الآيات الكبرى.

(١) العد بالكسر الماء الذي له مادة لا تنقطع.

اشتملت هذه الآيات على إعلام الله تعالى بتزكيتة ﷺ في هذا المسرى، فزكى قلبه بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾، ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَطْقُ عَنِ الْهَوَى﴾، وبصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِظَنِينٍ﴾ أي بمتهم، ومن قرأها بالضاد فمعناه ما هو ببخيل بالدعاء به والتذكير بحكمه وبعلمه. وهذه لمحمد ﷺ باتفاق.

وقال تعالى: ﴿تَ وَالْقَلَمِ﴾. أقسم الله تعالى بما أقسم به من عظيم قسمه على تنزيه المصطفى ﷺ مما غمصته الكفرة به وتكذيبهم له، وآنسه وبسط أمله بقوله محسناً خطابه ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وهذه نهاية المبررة في المخاطبة وأعلى درجات الآداب في المحاوراة، ثم أعلمه بما له عنده من نعيم دائم وثواب غير منقطع لا يأخذه عدٌّ ولا يُمنُّ به عليه، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾.

ثم أثنى عليه بما منحه من هباته وهدايه إليه، وأكد ذلك تتميمًا للتمجيد بحرفي التأكيد، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، قيل: القرآن وقيل: الإسلام وقيل: الطبع الكريم.

ثم سلّاه عن قولهم بعد هذا بما وعده به من عقابهم وتوعدّهم بقوله: ﴿فَسَبِّحْهُ وَبَصِّرْهُ وَيُبْصِرْ﴾ ٥، بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ٦، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

ثم ذمَّ عدوّه وذكر سوء خُلُقِه وعدَّ معاييه متولّيًا ذلك بفضلِه ومتصرًّا
لنبيه صلى الله عليه وسلم، فذكر بضع عشرة خصلةً من خصال الذم في عدوه بقوله
تعالى: ﴿فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝۸ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝۹ وَلَا تَطْعِ كُلَّ حَلَّافٍ
مَّهِينٍ ۝۱۰ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ ۝۱۱ مَنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝۱۲ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ
۝۱۳ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝۱۴ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾،
وختم ذلك بالوعيد الصادق بتمام شقائه وخاتمة بواره بقوله تعالى: ﴿سَنَسِفُهُ
عَلَى الْخُرُطُومِ ۝﴾، فكانت نصره الله تعالى لنبيه أتم من نصرته صلى الله عليه وسلم لنفسه
ورده تعالى على عدوّه أبلغ من رده وأثبت في ديوان مجده.



فصل فيما ورد من قوله تعالى في جهته ﷺ مورد الشفقة والإكرام

قال تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾. نزلت الآية فيما كان النبي ﷺ يتكلفه من السهر والتعب وقيام الليل.

ومثل هذا من نمط الشفقة والمبرة قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَّفْسِكَ عَلَىٰ عَاثِرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿٣﴾ أي قاتل نفسك لذلك غضبًا أو غيظًا أو جزعًا.

ومثله قوله تعالى أيضًا: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَّفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ﴿٥﴾.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٦﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٧﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٨﴾ ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿٩﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْتَ عَيْنَيْكَ رِجْسًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿١٠﴾، قال مكي: سلاه تعالى بما ذكر وهوّن عليه ما يلقاه من المشركين وأعلمه أن من تمادى على ذلك يحلُّ به ما حلَّ بمن قبله.

ومثل هذه التسلية قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿١١﴾.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾، عزَّاه الله تعالى بما أخبر به عن الأمم السالفة ومقاتلتها لأنبيائهم قبله ومحتتهم بهم، وسألاه بذلك عن محتته بمثله من كفار مكة، وأنه ليس أول مَنْ لَقِيَ ذلك، ثم طَيَّبَ نفسه وأبان عذره بقوله تعالى: ﴿فَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: أَعْرَضَ عَنْهُمْ ﴿فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾، أي: في أداء ما بُلِّغْتَ وإبلاغ ما حُمِّلْتَ. ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: اصبر على أذاهم، فإنك بحيث نراك ونحفظك، سَلَّاه الله تعالى بهذا في أي كثيرة من هذا المعنى.



فصل

فيما أخبر الله تعالى به من عظيم قدره ﷺ
وشريف منزلته على الأنبياء عليهم السلام

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

قال المفسرون: أخذ الله الميثاق بالوحي، فلم يبعث نبياً إلا ذكر له محمداً ونعته وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به، وقيل: أن يبينه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبينوه لمن بعدهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾، الخطاب لأهل الكتاب المعاصرين لمحمد ﷺ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بُعث وهو حيٌّ ليؤمننَّ به ولينصرنَّه ويأخذنَّ العهد بذلك على قومه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ

وَسُلَيْمَنَ وَعَادَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا
لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾
لَئِنْ أَشَاءَ اللَّهُ يَسْهُدْ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى
بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

قال السمرقندي: في هذا تفضيل نبينا ﷺ لتخصيصه بالذكر
قبلهم وهو آخرهم بعثًا، المعنى: أخذ الله تعالى عليهم الميثاق إذ أخرجهم من
ظهر آدم كالذّر^(١).

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ
بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ الآية. قال أهل التفسير: أراد بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ
دَرَجَاتٍ﴾ محمدًا ﷺ؛ لأنه بُعث إلى الأحمر والأسود وأُحِلَّت له
الغنائم وظهرت على يديه المعجزات، وليس أحد من الأنبياء أُعْطِيَ فضيلةً
أو كرامةً إلا وقد أعطى محمدًا ﷺ مثلها.



فصل في إعلام الله تعالى خلقه بصلاته عليه ﷺ وولايته له ورفع العذاب بسببه

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾، أي: ما كنت بمكة. فلما خرج النبي ﷺ من مكة وبقي فيها من بقي من المؤمنين نزل: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، وهذا مثل قوله: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ في آية ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بَغِيرَ عِلْمٍ لِّدَخَلِ اللَّهِ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فلما هاجر المؤمنون نزلت: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾، وهذا من أبين ما يُظهر مكانته ﷺ ودرأته العذاب عن أهل مكة بسبب كونه ثم كون أصحابه بعده بين أظهرهم، فلما خلت مكة منهم عذبهم الله بتسليط المؤمنين عليهم وغلبتهم إياهم وحكم فيهم سيوفهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم.

وفي الآية أيضًا تأويل آخر:

عن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزل الله عليَّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١﴾، فإذا مضيت تركت فيكم الاستغفار» (١).

ونحو منه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقال ﷺ: «أنا أمان لأصحابي» (٢)، قيل: من البدع، وقيل: من الاختلاف والفتن. قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم ما عاش وما دامت سنته باقية فهو باق، فإذا أميت سنته فانتظروا البلاء والفتن. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ الآية.

أبان الله تعالى فضل نبيه ﷺ بصلاته عليه ثم بصلاة ملائكته وأمر عباده بالصلاة والتسليم عليه. وقد حكى أبو بكر ابن فورك أن بعض العلماء تأوّل قوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني في الصلاة» على هذا، أي: في صلاة الله تعالى عليّ وملائكته وأمره الأمة بذلك إلى يوم القيامة. والصلاة من الملائكة ومنا له دعاء ومن الله عزّ وجلّ رحمة، وقيل: يصلون يباركون، وقد فرق النبي ﷺ حين علّم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة والبركة وسنذكر حكم الصلاة عليه.

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٠/٥).

(٢) صحيح مسلم (١٩٦١/٤).

وقال تعالى: ﴿إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾،
مولاه أي وليه وصالح المؤمنين، قيل الأنبياء وقيل الملائكة وقيل
أبو بكر وعمر، وقيل عليٌّ رضي الله عنه، أجمعين، وقيل المؤمنون على ظاهره.



فصل فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۝٤ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٥ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٦ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۝٧ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٨ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۝٩ بِاللَّهِ ظَنِّكَ السَّوْءَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۝١٠ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١١ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٢ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٣ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۝١٤ وَتُعْزِزُوهُ وَتُقَرِّوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝١٥ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۝١٦ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۝١٧ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُسَوِّوِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٨

تضمنت هذه الآيات من فضله والثناء عليه وكرامته منزلته عند الله تعالى ونعمته لديه ما يقصر الوصف عن الانتهاء إليه؛ فابتدأ **جَلَّ جَلَالُهُ** بإعلامه بما قضاه له من القضاء البين بظهوره وغلبته على عدوه وعلو كلمته وشريعته وأنه مغفور له غير مؤاخذ بما كان وما يكون. قال بعضهم: أراد غفران ما وقع وما لم يقع أي أنك مغفور لك، وقال مكي: جعل الله المنه سبباً للمغفرة وكل من عنده لا إله غيره، منة بعد منة وفضلاً بعد فضل.

ثم قال: ﴿وَيُتَرَعِّمَتُهُ عَلَيْكَ﴾، أي: يرفع ذكرك في الدنيا وينصرك ويغفر لك. فأعلمه تمام نعمته عليه بخضوع متكبري عدوه له، وفتح أهم البلاد عليه وأحبها له، ورفع ذكره وهدايته الصراط المستقيم المبلغ الجنة والسعادة، ونصره النصر العزيز، ومنتته على أمته المؤمنين بالسكينة والطمأنينة التي جعلها في قلوبهم، وبشارتهم بما لهم عند ربهم بعد وفوزهم العظيم والعفو عنهم والستر لذنوبهم، وهلاك عدوه في الدنيا والآخرة ولعنهم وبُعدهم من رحمته وسوء منقلبهم.

ثم قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الآية، فعد محاسنه وخصائصه من شهادته على أمته لنفسه بتبليغه الرسالة لهم، ومبشراً لأُمته بالثواب، ومنذراً عدوه بالعذاب، وتعزروه: أي تجلونه، وتنصرونه، وتبالغون في تعظيمه، وتوقروه أي تعظمونه، والأكثر والأظهر أن هذا في حق محمد ﷺ، ثم قال: وتسبحوه، فهذا راجع إلى الله تعالى؛ قال ابن عطاء^(١): جُمع للنبي ﷺ في هذه السورة نِعَمٌ مختلفةٌ من الفتح المبين وهي من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من أعلام الولاية؛ فالمغفرة تبرئةٌ من العيوب، وتمام النعمة إبلاغ الدرجة الكاملة، والهداية وهي الدعوة إلى المشاهدة.

(١) أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء أبو العباس الأدمي، قال الخطيب: «كان أحد شيوخهم الموصوفين بالعبادة والاجتهاد، وكثرة الدرس للقرآن»، وقال السجزي: «لم أر في جملة مشايخ الصوفية أفهم من ابن عطاء»، مات سنة ٣٠٩هـ. تاريخ بغداد (٦/ ٤٦٤-٤٦٦).

فصل فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته صلى الله عليه وسلم عليه ومكانته عنده وما خصه به

من ذلك عصمته من الناس بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ﴾، وما دفع الله به عنه في هذه القصة من أذاهم بعد تحرّيم لهلكه وخلوصهم نجياً في أمره، والأخذ على أبصارهم عند خروجه عليهم، وذهولهم عن طلبه في الغار وما ظهر في ذلك من الآيات ونزول السكينة عليه، وقصة سُرّاقة بن مالك حسبما ذكره أهل الحديث والسّير في قصة الغار وحديث الهجرة.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝۱ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝۲﴾ **إِبْرَ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** . أعلمه الله تعالى بما أعطاه، والكوثر حوضه، وقيل: نهر في الجنة، وقيل: الخير الكثير. ثم أجاب عنه عدوّه وردّ عليه قوله، فقال تعالى: ﴿إِبْرَ شَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي عدوك ومبغضك، والأبتر الحقيّر الدليل أو المفرد الوحيد أو الذي لا خير فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾، قيل: السبع المثاني السور الطّوال الأوّل، والقرآن العظيم أمّ القرآن، وقيل: السبع المثاني أمّ القرآن والقرآن العظيم سائره.

وقال: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الآية، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. فهذه من خصائصه.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فخصهم بقومهم وبعث محمداً ﷺ إلى الخلق كافة كما قال ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(١).

وقال تعالى: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾. قال أهل التفسير: أُولَىٰ بالمؤمنين من أنفسهم أي ما أنفذه فيهم من أمرٍ فهو ماضٍ عليه كما يمضي حكم السيد على عبده، وقيل: اتباع أمره أُولَىٰ من اتباع رأي النفس، وأزواجه أمهاتهم، أي هُنَّ في الحرمة كالأمهات حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمةً له وخصوصيةً، ولأنهن له أزواجٌ في الجنة.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ الآية، أي: فضله العظيم بالنبوة.



(١) صحيح مسلم (١/٣٧٠)، وهو في صحيح البخاري (١/٩٥) أيضًا بلفظ: «وبعثت إلى الناس كافة».

البَابُ الثَّانِي

في تكميل الله
تعالى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
المحاسن خُلُقًا
وخلُقًا وقرانه
جميع الفضائل
الدينية والدنيوية
فيه نسفا

الباب الثاني

في تكميل الله تعالى له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المحاسن خُلُقًا وَخُلُقًا وَقِرَانَهُ جَمِيعَ الْفَضَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ فِيهِ نَسَقًا

اعلم أيها المحب لهذا النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الباحث عن تفاصيل
جمل قدره العظيم أن خصال الجمال والكمال في البشر نوعان: ضروريٌّ
دنيويٌّ اقتضته الجبلة وضرورة الحياة الدنيا، ومكتسب دينيٌّ وهو ما يحمد
فاعله ويقرب إلى الله تعالى زُلْفَى، ثم هي على فئتين أيضًا؛ منها ما يتخلص
لأحد الوصفين ومنها ما يتمازج ويتداخل.

فأما الضروري المحض فما ليس للمرء فيه اختيارٌ ولا اكتساب، مثل
ما كان في جملة من كمال خلقته وجمال صورته، وقوة عقله وصحة فهمه
وفصاحة لسانه، وقوة حواسه وأعضائه واعتدال حركاته، وشرف نسبه وعزة
قومه وكرم أرضه. ويلحق به ما تدعوه ضرورة حياته إليه من غذائه ونومه
وملبسه ومسكنه ومنكحه وماله وجاهه، وقد تلحق هذه الخصال الآخرة
بالأخروية إذا قصد بها التقوي ومعونة البدن على سلوك طريقها وكانت على
حدود الضرورة وقواعد الشريعة.

وأما المكتسبة الأخروية فسائر الأخلاق العلمية والآداب الشرعية من
الدين والعلم والحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفو
والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة والصمت والتؤدة والوقار

والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وأخواتها، وهي التي جماعها: حُسن الخلق. وقد يكون من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلة لبعض الناس وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها ولكنه لا بد أن يكون فيه من أصولها في أصل الجبلة شعبة كما سنبينه إن شاء الله تعالى، وتكون هذه الأخلاق دنيوية إذا لم يرد بها وجه الله والدار الآخرة، ولكنها كلها محاسن وفضائل باتفاق أصحاب العقول السليمة، وإن اختلفوا في موجب حسناتها وتفضيلها.



فصل أنه اجتمع فيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خصال الكمال ما يشرف غيره بواحدة منها

إذا كانت خصال الكمال والجلال ما ذكرناه ورأينا الواحد منا يتشرف بواحدة منها أو اثنتين إن اتفقت له في كل عصر إما من نسب أو جمال أو قوة أو علم أو حلم أو شجاعة أو سماحة حتى يعظم قدره ويضرب باسمه الأمثال ويتقرر له بالوصف بذلك في القلوب أثره وعظمته وهو منذ عصور خوالٍ رمم بوالٍ، فما ظنك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كل هذه الخصال إلى ما لا يأخذه عدٌّ ولا يعبر عنه مقالٌ، ولا ينال بكسبٍ ولا حيلةٍ إلا بتخصيص الكبير المتعال، من فضيلة النبوة والرسالة، والخلة والمحبة والاصطفاء، والإسراء والرؤية والقرب والدنو والوحي، والشفاعة والوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والبعث إلى الأحمر والأسود، والصلاة بالأنبياء، والشهادة بين الأنبياء والأمم، وسيادة ولد آدم، ولواء الحمد، والبشارة والندارة، والأمانة والهداية ورحمة للعالمين، وإعطاء الرضى والسؤل والكوثر، وسماع القول وإتمام النعمة، والعفو عما تقدم وما تأخر، وشرح الصدر ووضع الإصر، ورفع الذكر وعزة النصر، ونزول السكينة والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة والسبع المثاني والقرآن العظيم، وتزكية الأمة والدعاء إلى الله، وصلاة الله تعالى والملائكة، والحكم بين الناس بما أراه الله، ووضع الإصر والأغلال عنهم، وإجابة دعوته، وتكليم

الجمادات والعجم، ونبع الماء من بين أصابعه وتكثير القليل، وانشقاق القمر،
والنصر بالرعب وظل الغمام، وتسييح الحصى وإبراء الآلام، والعصمة من
الناس، إلى ما لا يحويه محتفل ولا يحيط بعلمه إلا مانحه ذلك ومفضله به
لا إله غيره، إلى ما أعد له في الدار الآخرة من منازل الكرامة، ودرجات
القدس ومراتب السعادة، والحسنى والزيادة التي تقف دونها العقول، ويحار
دون إدراكها الوهم.



فصل في صفاته ﷺ الخلقية

إن قلت -أكرمك الله- لا خفاء على القطع بالجملة أنه ﷺ أعلى الناس قدرًا، وأعظمهم محلاً، وأكملهم محاسن وفضلاً، وقد ذهبت في تفاصيل خصال الكمال مذهباً جميلاً، شوقني إلى أن أقف عليها من أوصافه ﷺ تفصيلاً.

فاعلم -نور الله قلبي وقلبك وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك- أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة وفي جبلة الخلقة وجدته ﷺ حائزاً لجميعها محيطاً بشتات محاسنها، دون خلافٍ بين نقلة الأخبار لذلك، بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك من أنه ﷺ كان أزهر اللون^(١)، أدعج^(٢)، أنجل^(٣)، أشكل^(٤)، أهدب الأشفار^(٥)، أبلج^(٦)، أزج^(٧)، أقنى^(٨)،

(١) أبيض اللون مشرقه.

(٢) أدعج العينين، والدعج شدة سواد العين في شدة البياض.

(٣) عظيم المقلتين مع سوادها.

(٤) أي: كان لونه ﷺ أبيض مشوباً بحمرة، والشكل اختلاط الحمرة بالبياض.

(٥) أي: طويل شعر الأُفجان.

(٦) من البلج، وهو ابيضاض ما بين الحاجبين ونقاؤه.

(٧) من الزجج، وهو تقوس في الحاجب مع طول في طرفه.

(٨) من القنا، وهو طول مرسن الأنف ودقة أرنبته وحذب في وسطه.

أفلج^(١)، مدور الوجه، واسع الجبين.

كث اللحية تملأ صدره، سواء البطن والصدر، واسع الصدر، عظيم المنكبين، ضخمة العظام، عَبل^(٢) العضدين والذراعين والأسافل، رَحَب^(٣) الكفين والقدمين، سائل الأطراف^(٤).

أنور المتجرد^(٥)، دقيق المسربة^(٦)، رُبعة القَدّ ليس بالطويل البائن ولا القصير المتردد، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحدٌ ينسب إلى الطول إلا طاله ﷺ، رَجَل الشعر، إذا افترَّ صاحكًا افترَّ عن مثل سنا البرق وعن مثل حَبِّ الغمام، إذا تكلم رَوَّى كالنور يخرج من ثناياه.

أحسن الناس عُنُقًا ليس بِمُطَهَّم^(٧) ولا مُكَلَّم^(٨)، متماسك البدن ضَرْب اللحم^(٩).

(١) رجل أفلج، أي: المتباعد ما بين الرجلين، فأما في الأسنان فلا يقال إلا أفلج الأسنان ومفلج الأسنان.

(٢) أي عريضها.

(٣) وفي رواية مشهورة: شثن الكفين، يعني أنها تميلان إلى الغلظ.

(٤) يريد الأصابع أنها طوال ليست بمنعقدة ولا متغضنة.

(٥) أي: شديد بياض ما ظهر من بدنه، والمتجرد ما جرد عنه الثوب من بدنه، وأنور من النور، يريد شدة بياضه. انظر: المصدر السابق (١/ ٥٠٠).

(٦) المسربة بضم الراء وفتحها: الشعر المستدق ما بين اللبة إلى السرة.

(٧) أي لم يكن بالبادن الكثير اللحم.

(٨) قال أبو عبيد: معناه: لم يكن مستدير الوجه، ولكنه كان أسيلًا، وقال شمر: المكلم من الوجوه: القصير الحنك، الداني الجبهة المستدير الوجه. قال: ولا تكون الكلثمة إلا مع كثرة اللحم.

(٩) أي خفيف الجسم.

قال البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت من ذي لِمَّةٍ ^(١) في حُلَّةٍ حمراء أحسن من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢).

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأن الشمس تجري في وجهه ^(٣).

وقال جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال له رجل: كان وجهه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً ^(٤).

وقالت أم معبد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيدٍ وأحلاه وأحسنه من قريبٍ ^(٥).

وقال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في آخر وصفه له: من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٦).



(١) اللمة الشعر إذا جاوز شحمة الأذنين.

(٢) صحيح مسلم (١٨١٨/٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٦٠٤/٥)، وأحمد (٢٥٨/١٤) وابن حبان (٢١٥/١٤) وغيرهم.

(٤) صحيح مسلم (١٨٢٢/٤).

(٥) جزء من حديث طويل يحكي قصة أم معبد، أخرجه الطبراني في الكبير (٤٨/٤)، والحاكم في المستدرک (١٠/٣) وصححه ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه الترمذي (٥٩٩/٥).

فصل في نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن عورات الجسد

وأما نظافة جسمه وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن الأفذار وعورات الجسد فكان قد خصَّه الله تعالى في ذلك بخصائص لم توجد في غيره ثم تَمَّها بنظافة الشرع وخصال الفطرة العشر.

عن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال ما شَمِمتُ عَنبرًا قطّ ولا مسكًا ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسح خده، قال: فوجدت ليده بردًا وريحًا كأنما أخرجها من جؤنة عطار^(٢).

قال غيره: مسّها بطيبٍ أم لم يمسّها يصفح المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيُعرّف من بين الصبيان بريحها^(٣).

ونام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دار أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فعَرِقَ، فجاءت أمّه بقارورةٍ تجمع فيها عرقه، فسألها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، فقالت: نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب^(٤).

(١) صحيح مسلم (٤/١٨١٤).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٨١٤). والجؤنة بضم الجيم سبط مغشي بجلد، ظرف لطيب العطار. القاموس المحيط (ص ١١٨٥).

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (١/٢٩٨-٣٠٦) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في حديث طويل في صفة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٤) صحيح مسلم (٤/١٨١٤).

وذكر البخاري في تاريخه الكبير عن جابر: لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمر في طريق فيتبعه أحدٌ إلا عرف أنه سلكه من طيبه^(١).
ومنه حديث علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: غَسَلْتُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أجد شيئاً، فقلت: طبت حياً وميتاً. قال: وسطعت منه ريحٌ طيبةٌ لم نجد مثلها قط^(٢).
ومثله قال أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين قبّل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته^(٣).



(١) التاريخ الكبير (١/٣٩٩).

(٢) سنن ابن ماجه (١/٤٧١)، وإسناده صحيح.

(٣) صحيح البخاري (٦/٥).

فصل في وفور عقله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقوة حواسه

وأما وفور عقله وذكاء لُبِّه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسة العامة والخاصة مع عجب شمائله وبديع سيره فضلاً عما أفاضه من العلم وقرّره من الشرع دون تعلم سبق ولا ممارسة تقدّمت ولا مطالعة للكتب منه لم يمتري في رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لظهوره.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت أحداً أسرع من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مشيه كأنها الأرض تُطوى له، إنا لنُجهد أنفسنا وهو غير مكترث ^(١). وفي صفته عَلَيْهِ السَّلَام أن ضحكه كان تبسُّماً، إذا التفت التفت معاً، وإذا مشى مشى تقلعاً كأنها ينحط من صَبَب ^(٢).



(١) أخرجه الترمذي (٦٠٤/٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٩٩/٥).

فصل في فصاحة لسانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلاغة قوله

وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ وجزالة قول، وصحة معان وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم وخص بدائع الحكم وعِلْمُ ألسنة العرب، فكان يخاطب كل قبيلة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطنٍ عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره علم ذلك وتحققه.

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المألوفة وجوامع كلمه وحكمه الماثورة فقد أَلَّفَ الناس فيها الدواوين وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يوازي فصاحة ولا يبارى بلاغة.

كقوله: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»^(١)، وقوله: «المرء مع من أحب»^(٢). و«الناس معادن»^(٣). و«المستشار مؤتمن»^(٤). و«رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسليم»^(٥).

(١) أخرجه أبو داود (٨٠/٣)، وابن ماجه (٨٩٥/٢)، وأحمد (٢٦٨/٢).

(٢) صحيح مسلم (٢٠٣٤/٤).

(٣) صحيح البخاري (١٤٩/٤)، صحيح مسلم (١٩٥٨/٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٣٣/٤)، والترمذي (١٢٥/٥)، وابن ماجه (١٢٣٣/٢).

(٥) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٢٢٤)، وهناد بن السري في الزهد (٥٣٥/٢).

وقوله: «أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرَك مرتين»^(١). و«إن أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا الذين يألفون ويؤلفون»^(٢).

ونفيه عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ومنع وهات وعقوق الأمهات ووأد البنات^(٣). وقوله: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالف الناس بخلقٍ حسنٍ»^(٤). وقوله: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٥). إلى ما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته ومخاطباته وعهوده مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز فيها سبقًا لا يقدر قدره.

وقد جمعت من كلماته التي لم يسبق إليها ولا قدر أحد أن يفرغ في قلبه عليها كقوله: «حَمِي الوطيس»^(٦). و«لا يلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين»^(٧) في أخواتها ما يدرك الناظر العجب في مضمونها ويذهب به الفكر في أداني حكمها.

-
- (١) صحيح البخاري (٨/١)، صحيح مسلم (٣/١٣٩٣).
 - (٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/٤٤٣)، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (ص ٢٢٦)، والطبراني في المعجم الصغير (٢/٨٩).
 - (٣) صحيح البخاري (٨/١٠٠)، صحيح مسلم (٣/١٣٤١).
 - (٤) أخرجه الترمذي (٤/٣٥٥) وصححه، وأحمد (٣٥/٢٨٤).
 - (٥) صحيح البخاري (٣/١٢٩)، صحيح مسلم (٤/١٩٩٦).
 - (٦) صحيح مسلم (٣/١٣٩٨).
 - (٧) صحيح البخاري (٨/٣١)، صحيح مسلم (٤/٢٢٩٥).

فصل

وأما ما تدعو ضرورة الحياة إليه مما فصلناه فعلى ثلاثة أضرب:
ضربُ الفضل في قلته وضربُ الفضل في كثرته وضربُ تختلف الأحوال فيه.

فأما ما التمدح والكمال بقلته اتفاقاً وعلى كل حال عادةً وشريعةً
فكالغذاء والنوم، ولم تزل العرب والحكماء تتماح بقلتهما وتذم بكثرتها؛ لأن
كثرة الأكل والشرب دليلٌ على النهم والحرص والشره وغلبة الشهوة مسببٌ
لمضار الدنيا والآخرة جالبٌ لأدواء الجسد وخثارة النفس وامتلاء الدماغ،
وقلته دليلٌ على القناعة وملك النفس وقمع الشهوة مسببٌ للصحة وصفاء
الخاطر وحدة الذهن، كما أن كثرة النوم دليلٌ على الفسولة والضعف وعدم
الذكاء والفطنة مسببٌ للكسل وعادة العجز وتضييع العمر في غير نفع،
وقساوة القلب وغفلته وموته.

وكان النبي ﷺ قد أخذ من هذين الفنين بالأقل، هذا ما لا يدفع
من سيرته وهو الذي أمر به وحض عليه لا سيما بارتباط أحدهما بالآخر.
عن المقدام بن معد يكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ما
مأأ ابن آدم وعاءاً شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكالات يُقمن صلبه، فإن كان
لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه»^(١).

(١) أخرجه الترمذي (٥٩٠/٤)، وابن ماجه (١١١١/٢)، وأحمد (٤٢٢/٢٨).

وكان في أهله لا يسألهم طعامًا ولا يشهّاه، ما أطعموه قبل وما سقوه شرب. ولا يعترض على هذا بحديث بريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وقوله: «ألم أرا البرمة فيها لحم؟»^(١)؛ إذ لعل سبب سؤاله ظنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتقادهم أنه لا يحل له فأراد بيان سنته، إذ رأهم لم يقدموه إليه مع علمه أنهم لا يستأثرون عليه به، فصدق عليهم ظنه ويبيّن لهم ما جهلوه من أمره بقوله «هو لها صدقة ولنا هدية».

وفي صحيح الحديث قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما أنا فلا أكل متكئًا»^(٢). والالتكاء هو التمكن للأكل في الجلوس له كالمربع وشبهه من تمكّن الجلسات التي يعتمد فيها الجالس على ما تحته، والجالس على هذه الهيئة يستدعي الأكل ويستكثر منه، والنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان جلوسه للأكل جلوس المستوفز مقعياً، وليس معنى الحديث في الالتكاء الميل على شقّ عند المحققين.

وكذلك نومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قليلاً شهدت بذلك الآثار الصحيحة. ومع ذلك فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي»^(٣). وكان نومه على جانبه الأيمن استظهاراً على قلة النوم؛ لأنه على الجانب الأيسر أهنأ لهدو القلب وما يتعلق به من الأعضاء الباطنة حينئذٍ لميلها إلى الجانب الأيسر، فيستدعي ذلك الاستثقال فيه والطول، وإذا نام النائم على الأيمن تعلق القلب وقلق فأسرع الإفاقة ولم يغمره الاستغراق.

(١) صحيح البخاري (٧/٤٧).

(٢) صحيح البخاري (٧/٧٢) بلفظ: «لا أكل متكئًا».

(٣) صحيح البخاري (٢/٥٣)، وصحيح مسلم (١/٥٠٩).

فصل

والضرب الثاني ما يتفق التمدح بكثرته والفخر بوفوره كالنكاح والجاه.

أما النكاح فمتفق فيه شرعاً وعادة؛ فإنه دليل الكمال وصحة الذكورية ولم يزل التفاخر بكثرته عادة معروفة والتهاذح به سيرة ماضية.

وأما في الشرع فسنة مأثورة. وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل هذه الأمة أكثرها نساء^(١)، مشيراً إليه صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: «تناكحوا تناسلوا فإني مباهٍ بكم الأمم»^(٢).

ونهى عن التبتل مع ما فيه من قمع الشهوة وغض البصر اللذين نبه عليهما صلى الله عليه وسلم بقوله: «من كان ذا طُول فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج»^(٣)، حتى لم يره العلماء مما يقدر في الزهد.

وقد روينا عن أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان يدور على نسائه في الساعة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة، قال أنس: وكنا نتحدث أنه أعطي قوة ثلاثين رجلاً. أخرجه النسائي^(٤).

(١) صحيح البخاري (٣/٧).

(٢) مختصر المقاصد الحسنة للزرقاني (٣٢٦).

(٣) أخرجه النسائي (٤/ ١٧١).

(٤) سنن النسائي الكبرى (٨/ ٢٠٧)، وأخرجه البخاري أيضاً (١/ ٦٢).

وأما الجاه فمحمودٌ عند العقلاء عادةً، وبقدر جاهه عظمه في القلوب، وقد قال الله تعالى في صفة عيسى عليه السلام: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، لكن آفاته كثيرةٌ فهو مضرٌ لبعض الناس لعقبى الآخرة؛ فلذلك ذمّه من ذمّه ومدح ضده، وورد في الشرع مدح الخمول وذمّ العلوّ في الأرض.

وكان صلى الله عليه وسلم قد رزق من الحشمة والمكانة في القلوب والعظمة قبل النبوة عند الجاهلية وبعدها وهم يكذبونه ويؤذون أصحابه ويقصدون أذاه في نفسه خفيةً، حتى إذا واجههم أعظموا أمره وقضوا حاجته، وأخبره في ذلك معروفةٌ سيأتي بعضها.

وقد كان يبهت ويفرق لرؤيته من لم يره كما روي عن قيلة أنها لما رآته أُرعدت من الفرق فقال: «يا مسكينة عليك السكينة»^(١).

وفي حديث أبي مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قام بين يديه فأرعد فقال له: «هون عليك فإنني لست بملك» الحديث^(٢).



(١) أخرجه أبو داود (٢٦٢/٤)، والترمذي (١٢٠/٥)، وغيرهما.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٠١/٢)، وابن سعد في الطبقات (٢١/١) وغيرهما.

فصل

وأما الضرب الثالث فهو ما تختلف الحالات في التمدح به والتفاخر بسببه والتفضيل لأجله ككثرة المال، فصاحبه على الجملة معظّم عند العامة لاعتقادها توصله به إلى حاجاته وتمكّن أغراضه بسببه، وإلا فليس فضيلةً في نفسه، فمتى كان المال بهذه الصورة وصاحبه منفقاً له في مهمّاته ومهمّات من اعتراه وأمّله وتصريفه في مواضعه مشترياً به المعالي والثناء الحسن والمنزلة من القلوب كان فضيلةً في صاحبه عند أهل الدنيا، وإذا صرفه في وجوه البر وأنفقه في سبل الخير وقصد بذلك الله والدار الآخرة كان فضيلةً عند الكل بكل حال، ومتى كان صاحبه ممسكاً له غير موجّه وجوهه حريصاً على جمعه عاد كثره كالعدم، وكان منقصةً في صاحبه ولم يقف به على جدّد السلامة، بل أوقعه في هوة رذيلة البخل ومذمة النذالة.

فإذا التمدح بالمال وفضيلته عند مفضله ليس لنفسه، وإنما هو للتوصل به إلى غيره وتصريفه في متصرّفات، فجامعه إذا لم يضعه مواضعه ولا وجّهه وجوهه غير مليء بالحقيقة ولا غني بالمعنى ولا متمدح عند أحد من العقلاء، بل هو فقيرٌ أبداً غير واصلٍ إلى غرضٍ من أغراضه، إذ ما بيده من المال الموصل لها لم يسلّط عليه، فأشبهه خازن مال غيره ولا مال له، فكأنه ليس في يده منه شيء، والمنفق مليٌّ غنيٌ بتحصيله فوائد المال وإن لم يبق في يده من المال شيء.

فانظر سيرة نبينا ﷺ وخلق في المال تجده قد أوتي خزائن الأرض ومفاتيح البلاد، وأحلت له الغنائم ولم تحل لنبي قبله، وفتح عليه في حياته ﷺ بلاد الحجاز واليمن، وجميع جزيرة العرب وما داني ذلك من الشام والعراق، وجلبت إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يحصى للملوك إلا بعضه، وهادته جماعة من ملوك الأقاليم، فما استأثر بشيء منه ولا أمسك منه درهماً، بل صرفه مصارفه وأغنى به غيره وقوى به المسلمين، وقال: «ما يسرني أن لي أحداً ذهباً يبيت عندي منه دينارٌ إلا ديناراً أرصده لدين»^(١)، وأتته دنائير مرةً فقسمها وبقيت منها ستة، فدفعها لبعض نسائه، فلم يأخذ نوماً حتى قام وقسمها، وقال: «الآن استرحت»، ومات ودرعه مرهونةً في نفقة عياله، واقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعوه ضرورته إليه وزهد فيما سواه، فكان يلبس ما وجده؛ فيلبس في الغالب الشَّملة والكساء الخشن والبرد الغليظ، ويقسم على من حضره أقبية الدِّباج المخصوصة بالذهب ويرفع لمن لم يحضر؛ إذ المباهاة في الملابس والتزين بها ليست من خصال الشرف والجلالة، وهي من سمات النساء، والمحمود منها نقاوة الثوب والتوسط في جنسه وكونه لبس مثله غير مسقطٍ لمروءة جنسه مما لا يؤدي إلى الشهرة في الطرفين، وقد ذم الشرع ذلك، وغاية الفخر فيه في العادة عند الناس إنما يعود إلى الفخر بكثرة الموجود ووفور الحال، وكذلك

(١) صحيح البخاري (٣/١١٦)، وصحيح مسلم (٢/٦٨٧).

التباهي بجودة المسكن وسعة المنزل وتكثير آلاته وخدمه ومركوباته، ومن ملك الأرض وجُبي إليه ما فيها وترك ذلك زهدًا وتنزهًا فهو حائزٌ لفضيلة المالية ومالك للفخر بهذه الخصلة إن كانت فضيلةً، زائدٌ عليها في الفخر ومُعرق في المدح بإضرابه عنها وزهده في فانيها وبذلها في مظانها.



فصل في أخلاقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وأما الخصال المكتسبة من الأخلاق الحميدة والآداب الشريفة التي اتفق جميع العقلاء على تفضيل صاحبها وتعظيم المتصف بالخلق الواحد منها فضلاً عما فوقه وأثنى الشرع على جميعها وأمر بها ووعد السعادة الدائمة للمتخلق بها ووصف بعضها بأنه من أجزاء النبوة وهي المسماة بحسن الخلق - وهو الاعتدال في قوى النفس وأوصافها والتوسط فيها دون الميل إلى منحرف أطرافها - فجميعها قد كانت خلق نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الانتهاء في كمالها والاعتدال إلى غايتها، حتى أثنى الله عليه بذلك فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه^(١). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(٢). وقال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس خلقاً^(٣).



(١) فتح الباري (٦/ ٥٧٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥١٣/ ١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ١٤٣).

(٣) صحيح البخاري (٨/ ٤٥)، وصحيح مسلم (١/ ٤٥٧).

فصل في حلمه ﷺ وعفوه وصبره

وأما الحلم والاحتمال والعفو مع المقدرة والصبر على ما يكره فمن عظيم ما اتصف به ﷺ، وبين هذه الألقاب فرق، فإن الحلم حالة توقّر وثبات عند الأسباب المحركات، والاحتمال حبس النفس عند الآلام والمؤذيات، ومثلها الصبر ومعانيها متقاربة، وأما العفو فهو ترك المؤاخذه. وهذا كله مما أدّب الله تعالى به نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾.

وقال له: ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾، وقال: ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾، ولا خفاء بما يؤثر من حلمه واحتماله، وأن كل حليم قد عرفت منه زلة وحفظت عنه هفوة وهو ﷺ لا يزيد مع كثرة الأذى إلا صبراً وعلى إسراف الجاهل إلا حِلماً.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما خيّر رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم الله بها»^(١).

(١) صحيح البخاري (٨/ ١٦٠)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨١٣).

وروي أن النبي ﷺ لما كُسرَت رِباعيته وشُجَّ وجهه يوم أُحُدٍ شقَّ ذلك على أصحابه شقًّا شديدًا، وقالوا: لو دعوت عليهم فقال: «إني لم أبعث لَعَنًا ولكني بعثت داعيًا ورحمةً، اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»^(١).

انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم؛ إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال: «اهد»، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لقومي»، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: «فإنهم لا يعلمون».

ولما قال له الرجل: «اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله» لم يزد في جوابه أن يبين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له، فقال: «ويحك، فمن يعدل إن لم أعدل؟ خبت وخسرت إن لم أعدل»، ونهى من أراد من أصحابه قتله^(٢).

ولما تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ متبذُّ تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون في غزاة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائمٌ والسيف صلتاً في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: الله، فسقط السياف من يده، فأخذه النبي ﷺ وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذٍ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئكم من عند خير الناس^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ٢٠٠)، وصحيح مسلم (٢/ ٧٤٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣/ ١٩٣)، وأبو يعلى (٣/ ٣١٢)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٣٨).

ومن عظيم خبره في العفو عفوهُ عن اليهودية التي سَمَّته في الشاة بعد اعترافها على الصحيح من الرواية^(١).

وأنه لم يؤاخذ لبيد بن الأعصم إذ سحره وقد أُعْلِم به وأُوْحِيَ إليه لشرح أمره، ولا عَتَب عليه فضلاً عن معاقبته^(٢).

وكذلك لم يؤاخذ عبد الله بن أُبَيٍّ وأشباهه من المنافقين بعظيم ما نُقِل عنهم في جهته قولاً وفعلاً، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم: «لا، لئلا يُتَحَدَّث أن محمداً يقتل أصحابه»^(٣).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرد نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجذبه بردائه جذدةً شديدةً، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثَّرت بها حاشية البرد من شدة جذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء»^(٤).

وقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هبط ثمانون رجلاً من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ﷺ فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^(٥).

وكان رسول الله ﷺ أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى ﷺ.

(١) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣٤٧/٥)، وفتح الباري لابن حجر (٢٤٥/١٠).

(٢) فتح الباري (٢٣١/١٠).

(٣) صحيح البخاري (١٥٤/٦)، وصحيح مسلم (١٩٩٨/٤).

(٤) صحيح البخاري (١٤٦/٧)، ومسلم (٧٣٠/٢).

(٥) صحيح مسلم (١٤٤٢/٣).

فصل في جوده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرمه وسماحته

وأما الجود والكرم والسخاء والسماحة فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُوازى فيها ولا يُبارى، بهذا وصفه كل من عرفه.

ومعانيها متقاربة، وقد فَرَّق بعضهم بينها بفروق؛ فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه، وسموه أيضًا جرأةً، وهو ضد النذالة، والسماحة التجافي عما يستحقه المرء عند غيره بطيب نفسٍ، وهو ضد الشكاسة، والسخاء سهولة الإنفاق وتجنب اكتساب ما لا يُحمد وهو الجود، وهو ضد التقتير.

عن ابن المنكدر سمعت جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يقول: ما سُئِل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء فقال: لا^(١).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عَلَيْهِ السَّلَام أجود بالخير من الريح المرسلة^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً سألَه فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه وقال: أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاءً مَنْ لا يخشى فاقةً^(٣).

(١) صحيح البخاري (١٣/٨)، وصحيح مسلم (٤/١٨٠٥).

(٢) صحيح البخاري (٨/١)، وصحيح مسلم (٤/١٨٠٣).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦) (٢٣١٢).

وأعطى غير واحد مائةً من الإبل، وأعطى صفوان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مائةً ثم مائةً ثم مائةً^(١).

وهذه كانت خُلِقَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يُبعث، وقد قال له ورقة بن نوفل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إنك تحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم.

وردَّ على هوازن سباياها وكانت ستة آلاف^(٢). وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله^(٣). وجاءه رجلٌ فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع عليّ فإذا جاءنا شيء قضينا، فقال له عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك فقال رجلٌ من الأنصار: يا رسول الله، أنفق ولا تحش من ذي العرش إقللاً، فتبسم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعُرف البشر في وجهه، وقال: بهذا أمرت^(٤).

والخبر بجوده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكرمه كثيرٌ.



(١) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦) (٢٣١٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/٣٧٩) وأبو عبيد في الأموال (ص ١٥٦) وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (١/٩١) معلقاً بصيغة الجزم.

(٤) أخرجه الترمذي في الشئائل (ص ٢٠١).

فصل في شجاعته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونجدة

وأما الشجاعة والنجدة فكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهما بالمكان الذي لا يُجْهَل، قد حضر المواقف الصعبة وفرّ الكهاة والأبطال عنه غير مرة وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يُدبر ولا يتزحزح، وما شجاعٌ إلا وقد أُحصيت له فرة وحفظت عنه جولة^(١) سواه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والشجاعة فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت حيث يحمد فعلها دون خوف.

عن أبي إسحاق أنه سمع البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسأله رجل: أفرتم يوم حنين عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: لكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفر، ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان^(٢) أخذ بلجامها، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: أنا النبي لا كذب، وزاد غيره: أنا ابن عبد المطلب^(٣).

وذكر مسلم عن العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين، فطَفِقَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يركض بغلته نحو الكفار، وأنا أخذ بلجامها أكفها إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان أخذ بركابه ثم نادى: يا للمسلمين - الحديث -^(٤).

(١) أي: تردد ونفرة.

(٢) هو أبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٣) صحيح البخاري (٣٠/٤)، وصحيح مسلم (٣/١٤٠٠).

(٤) صحيح مسلم (٣/١٣٩٨).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أراضى من رسول الله ﷺ ^(١).

وقال علي رضي الله عنه: إنا كنا إذا حمي البأس - ويروى اشتد البأس - واحمرت الحلق ^(٢) اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، كان من أشد الناس يومئذٍ بأساً ^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه: كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلةً فانطلق ناسٌ قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت، وقد استبرأ الخبر على فرس لأبي طلحة عُرِّي والسيف في عنقه وهو يقول: لن تراعوا ^(٤).



-
- (١) أخرجه الدارمي في سننه (٢٠٤ / ١)، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (ص ٦٠).
- (٢) جمع حدقة، والحدقة السواد المستدير وسط بياض العين وقيل: هي في الظاهر سواد العين، وفي الباطن خرزتها.
- (٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٣٤ / ٨)، وأحمد (٨١ / ٢).
- (٤) صحيح البخاري (٣٩ / ٤)، وصحيح مسلم (٤ / ١٨٠٢).

فصل في حياته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإغضائه

وأما الحياء والإغضاء فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد الناس حياءً وأكثرهم عن العورات إغضاءً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَجِئُ مِنْكُمْ﴾. والحياء رقةٌ تعترى وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته أو ما يكون تركه خيراً من فعله، والإغضاء التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه^(١).

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لطيف البشرة رقيق الظاهر، لا يشافه أحداً بما يكرهه حياءً وكرم نفسٍ.

عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بلغه عن أحدٍ ما يكرهه لم يقل: ما بال فلانٍ يقول كذا، ولكن يقول: «ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا»، ينهى عنه ولا يسمي فاعله^(٢).

وروى أنسٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه دخل عليه رجلٌ به أثر صفرة فلم يقل له شيئاً، وكان لا يواجه أحداً بما يكره، فلما خرج قال: «لو قلتم له يغسل هذا»، ويروى: «ينزعها»^(٣).

(١) صحيح البخاري (٢٦/٨)، وصحيح مسلم (٤/١٨٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢٥٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/٨١)، وأحمد (١٩/٣٦٦).

قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في الصحيح: لم يكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحاشًا ولا متفحشًا ولا سخابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح^(١).



(١) أخرجه الترمذي (٣٦٩/٤)، وأحمد (٢٥٧/٤٢).

فصل في حسن عشرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأدبه

وأما حسن عشرته وأدبه وبسط خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصناف الخلق فبيحith انتشرت به الأخبار الصحيحة.

قال الله تعالى: ﴿فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وكان يجب من دعاه ويقبل الهدية ولو كانت كُراعًا ويكافئ عليها.

قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: خدمت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين، فما قال لي أفّ قط، وما قال لشيء صنعته: لم صنعته، ولا لشيء تركته: لم تركته^(١).

وقال جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما حجبني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قط منذ أسلمت، ولا رأني إلا تبسم^(٢). وكان يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم. ويداعب صبيانهم ويجلسهم في حجره. ويحيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين. ويعود المرضى في أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر.

قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما التقم أحد أذن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فينحي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحي رأسه، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ^(٣).

(١) صحيح (١٤/٨)، وصحيح مسلم (٤/١٨٠٤).

(٢) صحيح البخاري (٤/٦٥)، وصحيح مسلم (٤/١٩٢٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/٢٥١) وابن الأعرابي في معجمه (٢/٦٦٣).

وقال عبد الله بن الحارث رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيت أحداً أكثر تبسماً من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «كان خدم المدينة يأتون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى الغداة بآتيهم فيها الماء، فما يؤتى بآنية إلا غمس يده فيها، وربما كان ذلك في الغداة الباردة»^(٢)، يريدون به التبرك.



(١) أخرجه الترمذي (٥/٦٠١)، وفي الشئائل (ص ١٣٦)، وأحمد (٢٩/٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٨١٢)، وأحمد (١٩/٣٩٣).

فصل في شفقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وراقته ورحمته لجميع الخلق

وأما الشفقة والرافة والرحمة لجميع الخلق فقد قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوةً وذكر حينئذٍ، قال: فأعطى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوان بن أمية مائة من النعم ثم مائة ثم مائة. قال ابن شهاب: حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان قال: والله لقد أعطاني ما أعطاني وإنه لأبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إليّ^(١).

وروي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن: كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله، وأرسل إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزاده شيئاً، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك، قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذاك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ

(١) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦).

خيرًا. فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مثلي ومثل هذا مثل رجلٍ له ناقةٌ شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورًا فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي فإنني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإنني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار^(١).

ومن شفقتة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم، وكرهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم كقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء»^(٢). وخبر صلاة الليل ونهيهم عن الوصال^(٣). وكرهته دخول الكعبة لئلا تتعنت أمته^(٤). وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوّز في صلاته^(٥).

ومن شفقتة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن دعا ربه وعاهده فقال: «أيما رجلٍ سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاةً ورحمةً وصلاةً وطهوراً وقربةً تُقربه بها إليك يوم القيامة»^(٦).

ولما كذبه قومه أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: «إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم،

(١) أخرجه البزار في مسنده (٢٩٤/١٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٩٢٩/٢).

(٢) صحيح البخاري (٣/٣١)، وصحيح مسلم (١/٢٢٠)، وعنده: «عند كل صلاة».

(٣) صحيح البخاري (٣/٣٧)، وصحيح مسلم (٢/٧٧٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٣/٢١٤)، وابن ماجه (٢/١٠١٨)، وأحمد (٤١/٥٠٥).

(٥) صحيح البخاري (١/١٤٣)، وصحيح مسلم (١/٣٤٣).

(٦) صحيح البخاري (٨/٧٧)، وصحيح مسلم (٤/٢٠٠٧).

فناداه ملك الجبال وسلم عليه وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين»، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً»^(١).

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ما خيّر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما^(٢).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتخوّلنا بالموعة مخافة السامة علينا^(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة فجعلت تردّده فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليك بالرفق»^(٤).



(١) صحيح البخاري (١١٥/٤)، وصحيح مسلم (١٤٢٠/٣).

(٢) صحيح البخاري (١٦٠/٨)، وصحيح مسلم (١٨١٣/٤).

(٣) صحيح البخاري (٢٥/١)، وصحيح مسلم (٢١٧٢/٤).

(٤) صحيح مسلم (٢٠٠٤/٤).

فصل في وفائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسن عهده وصلة رحمه

وأما خلقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الوفاء وحسن العهد وصلة الرحم فعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أُتِيَ بهدية قال: «اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقةً لخديجة، إنها كانت تحب خديجة»^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ما غرت على امرأةٍ ما غرت على خديجة لما كنت أسمعها يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها^(٢). واستأذنت عليه أختها فارتاح لذلك^(٣).

ودخلت عليه امرأةٌ فهش لها وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان»^(٤).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، غير أن لهم رحمًا سأبُلُّها ببلائها»^(٥).

وقد صلى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بأمامة ابنة ابنته زينب يحملها على عاتقه، فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها^(٦).

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٩٠)، وابن حبان في صحيحه (٤٦٧/١٥).

(٢) صحيح البخاري (٨/٩)، وصحيح مسلم (٤/١٨٨٨).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٨٨٩).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/١٤)، والحاكم في المستدرک (١/٦٢).

(٥) صحيح البخاري (٨/٦)، وصحيح مسلم (١/١٩٢).

(٦) صحيح البخاري (١/١٠٩)، وصحيح مسلم (١/٣٨٦).

وفي حديث خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنها قالت له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبشر فوالله لا يحزنك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق^(١).



(١) صحيح البخاري (٧/١)، وصحيح مسلم (١/١٣٩).

فصل في تواضعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وأما تواضعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على علو منصبه ورفعة رتبته فكان أشد الناس تواضعاً وأعدهم كبراً.

عن أبي أمامة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متوكئاً على عصا، فقمنا له فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعْظَم بعضهم بعضاً»^(١).

وفي حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تُطْرُونِي كما أَطَرَت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبدٌ فقولوا: عبد الله ورسوله»^(٢).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن امرأةً كان في عقلها شيء، جاءتة فقالت: إن لي إليك حاجةً، قال: «اجلسي يا أم فلانٍ في أي طرق المدينة شئت أجلس إليك حتى أقضي حاجتك»، قال: فجلست، فجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها حتى فرغت من حاجتها^(٣).

قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب^(٤).

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٨/٤)، وأحمد (٥١٥/٣٦).

(٢) صحيح البخاري (١٦٧/٤).

(٣) صحيح مسلم (١٨١٢/٤).

(٤) انظر: صحيح البخاري (١٠٨/٥).

قال: وحجَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رجلٍ رثٍّ وعليه قطيفةٌ ما تساوي أربعة دراهم، فقال: «اللهم اجعله حجًّا مبرورًا لا رياء فيه ولا سمعة»^(١). هذا، وقد فتحت عليه الأرض، وأهدى في حجته تلك مائة بدنة^(٢).

ومن تواضعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: «لا تفضلوني على يونس بن متى». «ولا تفضلوا بين الأنبياء ولا تخيروني على موسى»^(٣). وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا في صفته: كان في بيته في مهنة أهله^(٤)؛ يفلي ثوبه ويحلب شاته^(٥). ويرقع ثوبه ويخصف نعله.

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: إن كانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنتلق به حيث شاءت حتى تقضي حاجتها^(٦). ودخل عليه رجلٌ فأصابته من هيئته رعدةٌ فقال له: «هَوْنٌ عليك فإني لست بمَلِكٍ، إنما أنا ابن امرأةٍ من قريشٍ تأكل القديد»^(٧).



- (١) أخرجه ابن ماجه (٢/ ٩٦٥)، والترمذي في الشئائل (ص ١٩٠).
- (٢) صحيح البخاري (٢/ ١٧٢).
- (٣) صحيح البخاري (٣/ ١٢٠).
- (٤) صحيح البخاري (٧/ ٦٥).
- (٥) أخرجه أحمد (٤٣/ ٢٦٣)، وابن حبان في صحيحه (١٢/ ٤٨٩).
- (٦) أخرجه البخاري (٨/ ٢٠) تعليقاً.
- (٧) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢١)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٥٠٦).

فصل في عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته

وأما عدله ﷺ وأمانته وعفته وصدق لهجته، فكان ﷺ آمن الناس وأعدل الناس وأعف الناس، أصدقهم لهجة منذ كان اعترف له بذلك مُحَادُّوهُ وَعِدَاهُ، وكان يسمَّى قبل نبوته الأمين.

قال ابن إسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة ^(١). ولما اختلفت قريش وتحازبت عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكّموا أول داخلٍ عليهم، فإذا بالنبي ﷺ داخلٌ وذلك قبل نبوته، فقالوا: هذا محمد هذا الأمين قد رضينا به ^(٢).

وعن الربيع بن خثيم قال: كان يُتَحَاكَمُ إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام ^(٣).

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أبا جهلٍ قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئت به، فأنزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ^(٤)، وروى غيره: لا نكذبك وما أنت فينا بمُكذَّب.

وسأل هرقل عنه أبا سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا ^(٥).

(١) سيرة ابن هشام (١/١٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤/٢٦٢)، والحاكم في المستدرک (١/٦٢٨).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/١٢٧)، والزهد للإمام أحمد (ص ٢٧٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٢٦١)، والحاكم في المستدرک (٢/٣٤٥).

(٥) صحيح البخاري (١/٨)، وصحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

فصل في وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه

وأما وقاره ﷺ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه فكان كثير السكوت لا يتكلم في غير حاجة، وكان ضحكه تبسُّماً^(١)، وكلامه فصلاً لا فضول ولا تقصير، مجلسه مجلس حلم وحياء وخير وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤبَّن فيه الحرم^(٢)، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير^(٣). وفي صفته: يخطو تكفُّراً^(٤) ويمشي هوناً كأنما ينحطُّ من صَبَبٍ^(٥).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان في كلام رسول الله ﷺ ترتيبٌ أو ترسيلٌ^(٦).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو عدَّه العادُّ أحصاه^(٧).

وكان ﷺ يحب الطيب والرائحة الحسنة، ويستعملها كثيراً

(١) أخرج الترمذي (٤٣٧/٤) وصححه، وأحمد (٤٠٥/٣٤).

(٢) أي: لا تُعاب.

(٣) انظر: مسند أحمد (٣٩٤/٣٠)، وصحيح ابن حبان (١٨٥/١٦).

(٤) التكفُّر التمايل كما تتكفأ السفينة في الماء يميناً وشمالاً. تهذيب اللغة (٢١٢/١٠).

(٥) انظر: الترمذي (٥٩٨/٥)، وأحمد (١٤٤/٢).

(٦) أخرجه أبو داود (٢٦٠/٤)، وأحمد في الزهد (ص ٤٧).

(٧) صحيح البخاري (١٩٠/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٩٨/٤).

ويحض عليهما ويقول: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النَّسَاءَ وَالطِّيبَ وَجَعَلْتُ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

ومن مروته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهيه عن النفخ في الطعام والشراب^(٢).
والأمر بالأكل مما يلي^(٣)، والأمر بالسواك^(٤)، وإنقاء البراجم والرواجب^(٥)
واستعمال خصال الفطرة^(٦).



(١) أخرجه النسائي في المجتبى (٦١ / ٧)، وأحمد (٣٠٥ / ١٩).

(٢) أخرجه الترمذي وغيره.

(٣) صحيح البخاري (٦٨ / ٧)، وصحيح مسلم (١٥٩٩ / ٣).

(٤) صحيح البخاري (٤ / ٢)، وصحيح مسلم (٢٢٠).

(٥) البراجم والرواجب مفاصل الأصابع. الصحاح (١٣٤ / ١).

(٦) صحيح مسلم (٢٢٣ / ١).

فصل في زهده ﷺ في الدنيا

وأما زهده ﷺ في الدنيا فقد تقدم من الأخبار أثناء هذه السيرة ما يكفي، وحسبك من تقلله منها وإعراضه عن زهرتها وقد سيقّت إليه بحذافيرها وترادفت عليه فتوحها أن توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في نفقة عياله^(١)، وهو يدعو ويقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»^(٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله^(٣).

وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاةً ولا بعيراً^(٤).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: إن كُنّا آل محمدٍ لَنَمْكُثُ شهراً ما نستوقد ناراً، إن هو إلا التمر والماء^(٥).

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: كان رسول الله ﷺ يبيت هو وأهله الليالي المتتابعة طاوياً لا يجدون عشاءً^(٦).

(١) صحيح البخاري (٤١/٤).

(٢) صحيح البخاري (٩٨/٨)، وصحيح مسلم (٧٣٠/٢).

(٣) صحيح مسلم (٢٢٨١/٤).

(٤) صحيح مسلم (١٢٥٦/٣).

(٥) صحيح مسلم (٢٢٨٢/٤).

(٦) أخرجه الترمذي (٥٨٠/٤)، وابن ماجه (١١١١/٢)، وأحمد (١٥٠/٤).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ما أكل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على خِوانٍ ولا في سُكْرَجَةٍ ولا خبز له مرققٌ ولا رأى شاةً سَمِيطًا قط^(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: إنما كان فراشه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ينام عليه أَدَمًا حَشْوُهُ لِفَفٌ^(٢).

وكان ينام أحيانًا على سريرٍ مَرْمُولٍ بِشَرِيطٍ حتى يؤثّر في جنبه^(٣).



(١) صحيح البخاري (٧/ ٧٥، ٩٧). والسكرجة: ما صغر من الصحف، والخوان المائدة أو ما يقوم مقامها، والسमित: الشاة المشوية.

(٢) صحيح البخاري (٨/ ٩٧)، وصحيح مسلم (٣/ ١٦٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (ص ٣٩٨)، ومرمول أي: منسوج.

فصل في خوفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه وطاعته له وشدة عبادته

وأما خوفه ربه وطاعته له وشدة عبادته فعلى قدر علمه بربه.
ولذلك كان أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»^(١).

زاد في رواية الترمذي عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون؛ أظن السماء وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملئ واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»^(٢).

وفي حديث المغيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: صلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى انتفخت قدماه، وفي رواية: كان يصلي حتى ترم قدماه، فقليل له: أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟»^(٣).

وقالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: كان عمل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ديمةً، وأيكم يطيق؟^(٤).

(١) صحيح البخاري (٥٤/٦)، وصحيح مسلم (٣٢٠/١).

(٢) جامع الترمذي (٥٥٦/٤).

(٣) صحيح البخاري (١٣٥/٦، ٥٠/٢)، وصحيح مسلم (٢١٧٢، ٢١٧١/٤).

(٤) صحيح البخاري (٤٢/٣).

وقالت: كان يصوم حتى نقول لا يفطر ويفطر حتى نقول لا يصوم^(١).
وقال أنس رضي الله عنه: كنت لا تشاء أن تراه في الليل مصلياً إلا رأيته مصلياً،
ولا نائماً إلا رأيته نائماً^(٢).

وقال عوف بن مالك رضي الله عنه: كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك
ثم توضأ ثم قام يصلي، فقامت معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة
إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ، ثم ركع فمكث بقدر
قيامه يقول: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»، ثم سجد
وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة، يفعل مثل ذلك^(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه مثله وقال: سجد نحواً من قيامه، وجلس بين
السجدين نحواً منه وقام حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة^(٤).
وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن
ليلة^(٥).

وعن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو
يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل^(٦).

(١) صحيح البخاري (٣٨/٣)، وصحيح مسلم (٢/٨١٠).

(٢) صحيح البخاري (٥٢/٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٣٠/١)، والنسائي في المجتبى (٢/٢٢٣)، وأحمد (٣٩/٤٠٥).

(٤) صحيح مسلم (١/٥٣٦).

(٥) أخرجه الترمذي (٢/٣١٠).

(٦) أخرجه أبو داود (١/٢٣٨)، والنسائي في المجتبى (٣/١٣)، وأحمد (٢٦/٢٣٩).

وقوله: «كأزيز المرجل» يعني: غليان القدر.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»، ورُوي
«سبعين مرة»^(١).



(١) صحيح البخاري (٦٧ / ٨)، ومسلم (٢٠٧٥ / ٤).

البَابُ الثَّالِثُ

فِيمَا وَرَدَ مِنْ
صَحِيحِ الْأَخْبَارِ
وَمَشْهُورِهَا
بِعَظِيمِ قُدْرِهِ عِنْدَ
رَبِّهِ وَمَنْزِلَتِهِ
وَمَا خَصَّهُ بِهِ
فِي الدَّارَيْنِ مِنْ
كَرَامَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الباب الثالث

فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم قدره عند ربه ومنزله وما خصه به في الدارين من كرامته ﷺ



لا خلاف أنه ﷺ أكرم البشر، وسيد ولد آدم، وأفضل الناس منزلةً عند الله، وأعلاهم درجةً، وأقربهم زُلْفَى. واعلم أن الأحاديث الواردة في ذلك كثيرةٌ جدًّا، وقد اقتصرنا منها على صحيحها ومنتشرها.

عن واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ أُتِيَ بالبُرَاق ليلة أُسْرِيَ به، فاستصعب عليه فقال له جبريل: بمحمدٍ تفعل هذا؟ فما ركبك أحدٌ أكرم على الله منه، فرفض عرقًا^(٢).

وروى عنه ﷺ جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما أنه قال: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي: نصرتُ بالربع مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لِي الأرض مسجدًا

(١) صحيح مسلم (٤/١٧٨٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٣٠١)، وأحمد (٢٠/١٠٧)، وابن حبان في صحيحه (١/٢٣٠).

وطهوراً؛ فأَيُّما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحِلَّت لي الغنائم ولم تحلّ لنبيّ قبلي، وبعثت إلى الناس كافةً، وأعطيتُ الشفاعة»^(١).

وعن العرياض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إني عبد الله وخاتم النبيين وإن آدم لُمُنْجِدٌ في طينته»^(٢)، وعدة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم»^(٣).

وفي الحديث الآخر عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «نصرتُ بالرب، وأوتيت جوامع الكلم، وبينا أنا نائم إذ جيء بمفاتيح خزائن الأرض، فوضعت في يدي»^(٤).

وعن عتبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال ﷺ: «إني فرط لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخاف عليكم أن تنافسوا فيها»^(٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: قال «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة»^(٦).

(١) صحيح البخاري (٧٤ / ١)، وصحيح مسلم (٣٧٠ / ١).

(٢) أي: مطروح على وجه الأرض صورة من طين لم تجر فيه الروح بعد.

(٣) أخرجه أحمد (٣٧٩ / ٢٨)، وابن حبان في صحيحه (٣١٣ / ١٤).

(٤) صحيح البخاري (٣٦ / ٩)، وصحيح مسلم (٣٧٢ / ١).

(٥) صحيح البخاري (٩١ / ٢)، ١٠٣ / ٥، ٨٠ / ٩٠.

(٦) صحيح البخاري (١٨٢ / ٦)، (١٣٤ / ١).

معنى هذا عند المحققين بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها، ومعجزة القرآن يقف عليها قرنٌ بعد قرنٍ عياناً لا خبراً إلى يوم القيامة.

وقال ﷺ: «إن الله قد حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وإنها لا تحل لأحدٍ بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار»^(١).

وعن خالد بن معدان أن نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال: «نعم أنا دعوة أبي إبراهيم»، يعني قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، «وبشر بي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نوراً أضاء له قصور بُصرى من أرض الشام، واسترضعت في بني سعد بن بكر، فبينما أنا مع أخٍ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً^(٢) لنا إذ جاءني رجلان عليهما ثياب بيض». وفي حديث آخر: «ثلاثة رجال بطست من ذهب مملوء ثلجاً، فأخذاني فشققا بطني». قال في غير هذا الحديث: «من نحري إلى مرقا بطني^(٣)، ثم استخرجا منه قلبي، فشقاها فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه».

وفي رواية: «ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فرجحتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته فوزنني بهم، فوزنتهم ثم قال: زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: دعه عنك فلو وزننته بأمته لوزنها»^(٤).

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٢٥)، وصحيح مسلم (٢/ ٩٨٨).

(٢) البهم: صغار الغنم.

(٣) أي: مارق منه ولان، ولا واحد له.

(٤) أخرجه ابن إسحاق (سيرة ابن هشام ١/ ١٦٦)، والطبري في التاريخ (٢/ ١٦٥).

فصل في تفضيله ﷺ بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدره المنتهى وما رأى من آيات ربه الكبرى

ومن خصائصه ﷺ قصة الإسراء وما انطوت عليه من درجات
الرفعة مما نبّه عليه الكتاب العزيز وشرحه صحاح الأخبار.

قال الله تعالى: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۝ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ (١١) أَفَتَمْرُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ (١٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾، فلا خلاف بين المسلمين في صحة الإسراء به ﷺ؛ إذ هو نص القرآن وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه وخواص نبينا محمد ﷺ فيه أحاديث كثيرة منتشرة رأينا أن نقدم أكملها ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبُرَاق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى

طرفه. قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبرئيل بإناءٍ من خمر وإناءٍ من لبن، فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة. ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بُعثَ إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بآدم ﷺ، فرحَّب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: قد بعثَ إليه، فَفُتِحَ لنا، فإذا أنا بابنَي الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلى الله عليهما، فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فذكر مثل الأول، فَفُتِحَ لنا فإذا أنا بـيوسف ﷺ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس، فرحب بي ودعا لي بخير. قال الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عُرِج بنا إلى السماء السابعة، فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألف ملكٍ لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كأذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال^(١)، قال: فلما غَشِيَهَا من أمر الله ما غَشِيَ تَغَيَّرَتْ،

(١) جمع قُلَّة، وهي الجرّة.

فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خمسين صلاةً في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاةً، قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوتُ بني إسرائيل وخبرتهم. قال: فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب، خففْ عن أمتي، فحطَّ عني خمساً، فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمساً، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال: فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد، إنهن خمس صلواتٍ كل يوم وليلة، لكل صلاةٍ عشرٌ، فتلك خمسون صلاةً، ومن همَّ بحسنةٍ فلم يعملها كتبت له حسنةً، فإن عملها كتبت له عشرًا، ومن همَّ بسيئةٍ فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئةً واحدةً. قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه^(١).

وقد وقعت في حديث الإسراء زياداتٌ نذكر منها نكتاً مفيدةً في

غرضنا، منها:

في حديث ابن شهاب، وفيه: قول كل نبيٍّ له: «مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح»، إلا آدم وإبراهيم، فقالا له: «والابن الصالح»^(٢).

وفيه من طريق ابن عباس رضي الله عنهما: «ثم عُرج بي حتى ظهرت بمستوى

أسمع فيه صريفَ الأقلام».

(١) صحيح مسلم (١/١٤٥-١٤٦).

(٢) صحيح البخاري (١/٧٨)، وصحيح مسلم (١/١٤٨).

وعن أنس رضي الله عنه: «ثم انطلق بي حتى أتيت سدره المنتهى، فغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي، قال: ثم أُدخلت الجنة»^(١).

وفي حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «فلما جاوزته -يعني موسى- بكى، فنودي: ما يبكيك؟ قال: رب، هذا غلامٌ بعثته بعدي، يدخل من أمتي الجنة أكثر مما يدخل من أمتي»^(٢).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وقد رأيتني في جماعةٍ من الأنبياء، فحانت الصلاة فأمرتهم، فقال قائلٌ: يا محمد، هذا مالكٌ خازن النار فسلم عليه، فالتفت فبدأني بالسلام»^(٣).

والحق من هذا والصحيح إن شاء الله أنه إسرائٌ بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدلُّ الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يُعَدَل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسرائ بجسده وحال يقظته استحالة؛ إذ لو كان منامًا لقال: بروح عبده ولم يقل بعبده، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، ولو كان منامًا لما كانت فيه آيةٌ ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه فيه، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته.

(١) صحيح البخاري (١٣٥/٤)، وصحيح مسلم (١٤٨/١).

(٢) صحيح مسلم (١٤٩/١).

(٣) صحيح مسلم (١٥٦/١).

فصل في تفضيله ﷺ بالمحبة والخلة

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «لو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر»^(١). وفي حديثٍ آخر: «وإن صاحبكم خليل الله»^(٢).

واختلف في تفسير الخلة وأصل اشتقاقها، ف قيل: الخليل المنقطع إلى الله الذي ليس في انقطاعه إليه ومحبه له اختلال، وقيل: الخليل المختص واختار هذا القول غير واحد، وقيل فيها غير ذلك.



(١) صحيح البخاري (٤/٥)، صحيح مسلم (٤/١٨٥٤).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٨٥٥).

فصل في ذكر تفضيله ﷺ في القيامة بخصوص الكرامة

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما نبيٌّ يومئذٍ آدمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تحت لوائي، وأنا أول من تنشقُّ عنه الأرض ولا فخر»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشقُّ عنه القبر، وأول شافع وأول مُشَفَّع»^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أنا أول الناس يَشْفَعُ في الجنة وأنا أكثر الناس تبعاً»^(٣).

قوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة»، هو سيدهم في الدنيا ويوم القيامة، ولكن أشار ﷺ لانفراده فيه بالسؤدد والشفاعة دون غيره؛ إذ لجأ الناس إليه في ذلك، فلم يجدوا سواه، والسيد هو الذي يلجأ الناس إليه في حوائجهم، فكان حينئذٍ سيداً منفرداً من بين البشر لم يزاحمه أحدٌ في ذلك ولا ادَّعاه.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أتي باب الجنة يوم القيامة، فاستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمدٌ، فيقول: بك أُمِرْتُ أن لا أفتح لأحدٍ قبلك»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٥/٥٨٧).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٧٨٢).

(٣) صحيح مسلم (١/١٨٨).

(٤) صحيح مسلم (١/١٨٨).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«حوضي مسيرة شهر، وزواياه سماء، وماؤه أبيض من الورق وريحه أطيب من
المسك، كيزانه كنجوم السماء، من شرب منه لم يظمأ أبداً»^(١).
وعن أبي ذر رضي الله عنه نحوه، وقال: «طوله ما بين عمان إلى أيلة، يشخبُ
فيه ميزابان من الجنة»^(٢).



(١) صحيح البخاري (١١٩/٨).

(٢) صحيح مسلم (١٧٩٨/٤).

فصل في تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود

قال الله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾.

عن آدم بن علي قال: سمعت ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثى، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع لنا، يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود ^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعني قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾، فقال: «هي الشفاعة» ^(٢).

وروى كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُحْشَرُ الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتي على تلٍّ، ويكسوني ربي حُلَّةً خضراء، ثم يُؤْذَن لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود» ^(٣).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما - وذكر حديث الشفاعة - قال: «فيمشي حتى يأخذ بحلقة الجنة، فيومئذ يبعثه الله المقام المحمود الذي وعده» ^(٤).

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُتُ بَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ، أَتْرُونَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ وَلَكِنهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ» ^(٥).

(١) صحيح البخاري (٨٦/٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٣/٥)، وأحمد (٤٥٨/١٥).

(٣) أخرجه ابن أبي داود في البعث (ص ٣١)، والطبراني في مسند الشاميين (٣٦/٣).

(٤) صحيح البخاري (١٢٣/٢).

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٤٤١/٢)، وأحمد (٣٢٧/٩).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، ماذا ورد عليك في الشفاعة؟ فقال: «شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يُصدق لسانه قلبه»^(١).

وعن أم حبيبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُرِيتُ مَا تَلْقَى أمتي من بعدي وسَفَكَ بعضهم دماء بعضٍ، وَسَبَقَ لهم من الله ما سبق للأمم قبلهم، فسألت الله أن يؤتيني شفاعته يوم القيامة فيهم، ففعل»^(٢).

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليزيد الفقير: سمعت بمقام محمد؟ -يعني الذي يبعثه الله فيه- قال: قلت: نعم، قال: فإنه مقام محمد المحمود الذي يخرج الله به من يخرج، يعني من النار، وذكر حديث الشفاعة في إخراج الجهنميين^(٣).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقولون: ألا تنظرون من يشفع لكم؟ فيأتون آدم، فيقولون -زاد بعضهم- أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا، ألا ترى ما نحن فيه؟، فيقول: إن ربي غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن الشجرة فعصيتُ، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون

(١) أخرجه أحمد (٤٣٣/١٣)، وابن حبان في صحيحه (٣٨٤/١٤).

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٥٦/٤)، والحاكم في المستدرک (٦٨/١).

(٣) صحيح مسلم (١٧٩/١).

نوحًا، فيقولون: أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غَضِبَ اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي. - قال في رواية أنسٍ: ويذكر خطيئته التي أصاب سؤاله ربه بغير علم. - وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: وقد كانت لي دعوةٌ دعوتها على قومي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم؛ فإنه خليل الله، فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غَضِبَ اليوم غضباً، - فذكر مثله، ويذكر ثلاث كلماتٍ كذبهن، - نفسي نفسي، لست لها، ولكن عليكم بموسى؛ فإنه كلیم الله، - وفي رواية: فإنه عبدٌ آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجياً. - قال: فيأتون موسى، فيقول: لست لها، - ويذكر خطيئته التي أصاب وقتله النفس، - نفسي نفسي، ولكن عليكم بـعيسى؛ فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد، فيأتون محمداً، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فاتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك،

سَلْ تُعْطَهُ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد، أَدْخِلْ مِنْ أَمَتِكَ مِنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِي مَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ»^(١).

ولم يذكر في رواية أنس هذا الفصل، وقال مكانه: «ثُمَّ أَخْرُسَ سَاجِدًا فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ وَسَلْ تُعْطَهُ، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من بُرَّةٍ أو شعيرة من إيمانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَرْجِعُ إِلَى رَبِّي، فَأُحَمِّدُهُ بِتِلْكَ الْحَمْدِ. - وذكر مثل الأول - وقال فيه: مثقال حبة من خردلٍ. قال: فأفعل ثم أرجع، وذكر مثل ما تقدم وقال فيه: من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردلٍ فأفعل، وذكر في المرة الرابعة فيقال لي: ارفع رأسك وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ وَاشْفَعْ تُشَفِّعْ وَسَلْ تُعْطَهُ فأقول: يا رب ائذن لي فيمن قال لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيائِي وَعِظَمَتِي وَجَبْرِيائِي لِأُخْرِجَنَّ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَمِنْ رِوَايَةِ قَتَادَةَ عَنْهُ قَالَ: فَلَا أُدْرِي فِي الثَّلَاثَةِ أَوِ الرَّابِعَةِ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ، أَيْ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»^(٢).

فقد اجتمع من اختلاف ألفاظ هذه الآثار أن شفاعته ﷺ ومقامه المحمود من أول الشفاعات إلى آخرها من حين يجتمع الناس للحشر وتضييق بهم الحناجر ويبلغ منهم العرق والشمس والوقوف مبلغة، وذلك

(١) صحيح البخاري (٨٤/٦)، وصحيح مسلم (١٨٤/١).

(٢) صحيح البخاري (١٤٦/٩)، وصحيح مسلم (١٨٢/١).

قبل الحساب، فيشفع حينئذٍ لإراحة الناس من الموقف، ثم يوضع الصراط ويحاسب الناس، فيشفع في تعجيل من لا حساب عليه من أمته إلى الجنة، ثم يشفع فيمن وجب عليه العذاب ودخل النار منهم حسبما تقتضيه الأحاديث الصحيحة، ثم فيمن قال: لا إله إلا الله وليس هذا لسواه ﷺ.

وفي الحديث المنتشر الصحيح: «لكل نبي دعوة يدعو بها، واختبات دعوتي شفاعاً لأمتي يوم القيامة»^(١).

قال أهل العلم: معناه دعوة أعلم أنها تستجاب لهم ويبلغ فيها مرغوبهم، وإلا فكم لكل نبي منهم من دعوة مستجابة، ولنبينا ﷺ منها ما لا يُعدُّ، لكن حالهم عند الدعاء بها بين الرجاء والخوف، وضمّنت لهم إجابة دعوة فيما شاؤوه يدعون بها على يقينٍ من الإجابة. فتكون هذه الدعوة المذكورة مخصوصةً بالأمة مضمونة الإجابة، وإلا فقد أخبر ﷺ أنه سأل لأمته أشياء من أمور الدين والدنيا أُعطي بعضها ومُنِعَ بعضها، وأدّخر لهم هذه الدعوة ليوم الفاقة وخاتمة المَحَنِّ وعظيم السؤال والرغبة؛ جزاه الله أحسن ما جرى نبياً عن أمته وصلى الله عليه وسلّم كثيراً.



(١) صحيح البخاري (٨/٦٧، ٩/١٣٩)، وصحيح مسلم (١/١٨٩، ١٩٠).

فصل في تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والكثرة والفضيلة

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي؛ فإنه من صلى علي مرة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبيد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة»^(١).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: «الوسيلة أعلى درجة في الجنة»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بيننا أنا أسير في الجنة إذ عُرض لي نهرٌ حافتاه قَبَابُ اللَّوْثِ، قلت لجبريل: ما هذا؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله، قال: ثم ضرب بيده إلى طينته فاستخرج مِسْكًا»^(٣).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه مثله، قال: «ومجراه على الدُّرِّ والياقوت، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»^(٤).

(١) صحيح مسلم (١/٢٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٥٨٦)، وأحمد (١٣/٤٠).

(٣) صحيح البخاري (٨/١٢٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/٤٤٩)، وأحمد (١٠/١٤٥).

وفي رواية عنه: «إذا هو يجري ولم يُشَقَّ شَقًّا، عليه حوضٌ تردُّ عليه أُمَّتِي»، وذكر حديث الحوض ^(١).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما ذكر ﷺ عن ربه: «وأعطاني الكوثر نهرًا من الجنة يسيل في حوضي» ^(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ قال: ألف قصرٍ من لؤلؤٍ تراهم المسك وفيه ما يصلحهن. وفي رواية أخرى: وفيه ما ينبغي له من الأزواج والخدم ^(٣).



(١) أخرجه أحمد (٢١/ ٢٠٠)، وأبو يعلى في مسنده (٦/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٣٨/ ٣٦٢).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٧٩)، والحاكم في المستدرک (٢/ ٥٧٣).

فصل في أسمائه ﷺ وما تضمنته من فضيلته

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»^(١).

وقد سماه الله تعالى في كتابه محمدًا وأحمدًا؛ فمما خصَّه الله تعالى به أن ضمَّنَ أسماءَهُ ثناءَهُ.

فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مفعَّل مبالغة من كثرة الحمد، فهو ﷺ أجَلُّ من مُحَمَّدٍ وأفضل من مُحَمَّدٍ من البشر وأكثرهم حمدًا، فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين ومعه لواء الحمد يوم القيامة ليتَّمَّ له كمال الحمد ويتشهر في تلك العَرَصاتِ بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقامًا محمودًا كما وعده يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم ويفتح عليه فيه من المحامد - كما قال ﷺ - ما لم يُعطَ غيره، وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحَمَّادين، فحقيق أن يسمَّى محمدًا وأحمدًا.

ثم في هذين الاسمين من عجائب خصائصه وبدائع آياته فنُّ آخر، هو أن الله جل اسمه حمى أن يسمى بهما أحدٌ قبل زمانه؛ أما أحمد الذي أتى في الكتب وبشَّرت به الأنبياء فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى به أحدٌ غيره ولا يُدعى به مدعوُّ قبله حتى لا يدخل لبسٌ على ضعيف القلب أو شكٌ.

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٨٥)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٢٨).

وكذلك محمدٌ أيضًا لم يسمَّ به أحدٌ من العرب ولا غيرهم إلى أن شاع قبيلٌ وجوده ﷺ وميلاده أن نبيًّا يُبعثُ اسمه محمدٌ، فسمى قومٌ قليلٌ من العرب أبناءهم بذلك رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالته، وهم: محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ومحمد بن براء البكري، ومحمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن حمران الجعفي، ومحمد بن خزاعي السلمي، لا سابع لهم^(١).

ويقال: أول من سمِّي محمدًا محمد بن سفيان، واليمن تقول: بل محمد ابن الیحمد من الأزد، ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة أو يدعيها أحدٌ له أو يظهر عليه سببٌ يشكك أحدًا في أمره حتى تحققت السماتان له ﷺ ولم يَنَازَعَ فيها.

وأما قوله ﷺ: «وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر» ففسَّر في الحديث، ويكون محو الكفر إما من مكة وبلاد العرب وما رُوي له من الأرض ووعد أنه يبلغه ملكٌ أمته، أو يكون المحو عامًّا بمعنى الظهور والغلبة كما قال تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.

وقوله: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي» أي: على زماني وعهدي، أي: ليس بعدي نبيٌّ كما قال: ﴿وَحَاقَتْهُمُ النَّارُ﴾. وسمي عاقبًا لأنه عقبَ غيره من الأنبياء.

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٥٦/٦): «وهو حصر مردود، وقد جمعت أسماء من تسمى بذلك في جزء مفرد، فبلغوا نحو العشرين، لكن مع تكررٍ في بعضهم ووهم في بعض، فيتلخص منهم خمسة عشر نفسًا».

وفي الصحيح: «أما العاقب الذي ليس بعدي نبياً»^(١).
وفي حديث عن جبير بن مطعم رضي الله عنه: هي ست: محمدٌ وأحمد وخاتمٌ وعاقبٌ وحاشرٌ وماحٍ^(٢).

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان صلى الله عليه وسلم يسمي لنا نفسه أسماً فيقول: «أنا محمدٌ وأحمد والمقضي والحاشر ونبى التوبة ونبى الملحمة»^(٣).

وكلُّ صحيحٍ إن شاء الله، ومعنى المقفي معنى العاقب، وأما نبى الرحمة والتوبة فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، وكما وصفه بأنه يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم، وبالمؤمنين رؤف رحيمٌ، وقد قال في صفة أمته: إنها أمةٌ مرحومةٌ، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾، أي يرحم بعضهم بعضاً، فبعثه صلى الله عليه وسلم ربه تعالى رحمةً لأمةٍ ورحمةً للعالمين ورحيماً بهم ومترحمًا ومستغفراً لهم، وجعل أمته أمةً مرحومةً ووصفها بالرحمة وأمرها صلى الله عليه وسلم بالتراحم وأثنى عليه. فقال: «إن الله يحبُّ من عباده الرحماء»^(٤).
وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(٥).

- (١) صحيح مسلم (٤/١٨٢٨).
- (٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/٨٥)، والحاكم في المستدرک (٤/٣٠٤).
- (٣) أخرجه أحمد (٣٢/٣٩٧، ٤٢٠)، وابن حبان في صحيحه (١٤/٢٢١).
- (٤) صحيح البخاري (٢/٧٩)، وصحيح مسلم (٢/٦٣٥).
- (٥) أخرجه أبو داود (٤/٢٨٥)، والترمذي (٤/٣٢٣).

وأما رواية «نبي الملحمة» إشارة إلى ما بعث به ﷺ من القتال
والسيف، وهي صحيحة.

وروى حذيفة مثل حديث أبي موسى رضي الله عنه، وفيه: «ونبي الرحمة
ونبي التوبة ونبي الملاحم»^(١).

وقد جاءت من ألقابه ﷺ وسماته في القرآن عدة كثيرة سوى ما
ذكرناه، كالنور والسراج المنير والمنذر والنذير والمبشر والبشير والشاهد
والشهيد وخاتم النبيين والرؤوف الرحيم والأمين ورحمة للعالمين والكريم
والنبي الأمي وداعي الله، في أوصاف كثيرة وسمات جليلة.

وجرى منها في كتب الله المتقدمة وكتب أنبيائه وأحاديث رسوله
وإطلاق الأمة جملة شافية، مثل المصطفى والمجتبى وأبي القاسم ورسول
رب العالمين والشفيع المشفع والمتقي والمصلح والصادق والمصدق
والهادي وسيد ولد آدم وسيد المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين
وصاحب الخوض المورود والشفاعة والمقام المحمود وصاحب الوسيلة
والفضيلة والدرجة الرفيعة وصاحب التاج والمعراج واللواء وصاحب
الحجة والخاتم والبرهان.

وكانت كنيته المشهورة أبا القاسم.



(١) أخرجه أحمد (٤٣٦/٣٨)، والترمذي في الشئائل (ص ٢١٥).

البَابُ الرَّابِعُ

فِيمَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ
تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ
الْمُعْجَزَاتِ
وَشَرَّفَهُ بِهِ مِنْ
الْخِصَائِصِ
وَالْكَرَامَاتِ

الباب الرابع فيما أظهره الله تعالى على يديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات

وإذا تأمل المتأمل المنصف ما قدمناه من جميل أثره وحميد سيره وبراعة علمه ورجاحة عقله وحلمه وجملة كماله وجميع خصاله وشاهد حاله وصواب مقاله لم يمتَر في صحة نبوته وصدق دعوته وقد كفى هذا غير واحد في إسلامه والإيمان به.

عن عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب (١).
ولما جاء ضِماد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، قال له: «أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هؤُلاءِ فلقد بلغن قاموس البحر» (٢)، هات يدك أبايعك» (٣).

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٥٢)، وابن ماجه (١/٤٢٣)، وأحمد (٣٩/٢٠١).

(٢) قاموس البحر وسطه أو لجئته أو قعره الأقصى.

(٣) صحيح مسلم (٢/٥٩٣).

فصل في معنى النبوة والرسالة والوحي

النبوة في لغة من همز مأخوذة من النبا وهو الخبر، وقد لا يهمز على هذا التأويل تسهيلاً، والمعنى أن الله تعالى أطلعه على بعض غيبه وأعلمه أنه نبيه فيكون نبيّ منبأً فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أو يكون مخبراً عما بعثه الله تعالى به ومُنْبِئاً بما أطلعه الله عليه، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، ويكون عند من لم يهمز من النبوة، وهو ما ارتفع من الأرض، معناه أن له رتبةً شريفة ومكانة نبوية عند مولاه مُنيفةً، فالوصفان في حقه مؤتلفان.

وأما الرسول فهو المرسل، ولم يأت فعولٌ بمعنى مُفْعَلٍ في اللغة إلا نادراً، وإرساله أمرُ الله له بالإبلاغ إلى من أرسله إليه، واشتقاقه من التابع، ومنه قولهم: جاء الناس أرسالاً إذا تبع بعضهم بعضاً، فكأنه أُلزم تكرير التبليغ أو أُلزمت الأمة اتباعه.

وأول الرسل آدم وآخرهم محمدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما الوحي فأصله الإسراع، فلما كان النبي يتلقى ما يأتيه من ربه بِعَجَلٍ سَمِّيَ وحيًا، وسميت أنواع الإلهامات وحيًا تشبيهاً بالوحي إلى النبي، وسمي الخط وحيًا لسرعة حركة يد كاتبه، ووحي الحاجب واللحظ سرعة إشارتهما، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، أي أوماً ورمز، وقيل: كتب، ومنه قولهم: الوحا الوحا أي السرعة السرعة، وقيل:

أصل الوحي السر والإخفاء، ومنه سُمِّي الإلهام وحياً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾، أي يوسوسون في صدورهم، ومنه قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾، أي أُلْقِيَ في قلبها، وقد قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحياً﴾، أي ما يلقيه في قلبه دون واسطة.



فصل في معنى المعجزة

اعلم أن معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء معجزةً هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، كإحياء الموتى وقلب العصا حيةً وإخراج ناقةٍ من صخرةٍ وكلام شجرةٍ ونبع الماء من الأصابع وانشقاق القمر مما لا يمكن أن يفعله أحدٌ إلا الله، فيكون ذلك على يد النبي ﷺ من فعل الله تعالى، وتحديه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيزٌ له.

واعلم أن المعجزات التي ظهرت على يد نبينا ﷺ - وهو أكثر الرسل معجزةً وأبرهم آيةً وأظهرهم برهاناً كما سنبينه - هي في كثرتها لا يحيط بها ضبط؛ فإن واحداً منها وهو القرآن لا يحصى عدد معجزاته بألفٍ ولا ألفين ولا أكثر؛ لأن النبي ﷺ قد تحدى بسورةٍ منه فُعِزَ عنها، قال أهل العلم: وأقصر السور ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأُنْحَرَ ﴿إِنَّكَ شَانِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، فكل آيةٍ أو آياتٍ منه بعددها وقدرها معجزةٌ، ثم فيها نفسها معجزاتٌ على ما سنفصله فيما انطوى عليه من المعجزات. وكثيرٌ من هذه المعجزات الماثورة عنه ﷺ معلومةٌ بالقطع.

أما انشقاق القمر فالقرآن نصٌّ بوقوعه وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهرٍ إلا بدليلٍ، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرقٍ كثيرةٍ ولا يؤهن عَزَمْنَا خلافُ أخرقٍ مُنَحَلٍّ عُرَى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدعٍ يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل تُرغم بهذا أنفه ونَبَذَ بالعراء سُخْفَهُ.

وكذلك قصة نبع الماء وتكثير الطعام رواها الثقات والعدد الكثير عن الجَمِّ الغفير عن العدد الكثير من الصحابة، ومنها ما رواه الكافة عن الكافة متصلًا عمن حدّث بها من جملة الصحابة وأخبارهم أن ذلك كان في موطن اجتماع الكثير منهم: في يوم الخندق، وفي غزوة بُواطٍ، وعمره الحديبية، وغزوة تبوك، وأمثالها من محافل المسلمين ومجمع العساكر، ولم يُؤثّر عن أحد من الصحابة مخالفة للراوي فيما حكاه ولا إنكارًا عما ذكّر عنهم أنهم رأوه كما رواه؛ فسكوت الساکت منهم كنطق الناطق؛ إذ هم المنزهون عن السكوت على باطلٍ والمداهنة في كذبٍ، وليس هناك رغبةٌ ولا رهبةٌ تمنعهم، ولو كان ما سمعوه منكرًا عندهم وغير معروفٍ لديهم لأنكروه، كما أنكر بعضهم على بعضٍ أشياء رواها من السنن والسّير وحروف القرآن، وخَطَأَ بعضهم بعضًا وَوَهَّمَهُ في ذلك مما هو معلومٌ. فهذا النوع كله يُلْحَقُ بالقطعي من معجزاته لما بيناه.

وأيضًا فإن أمثال الأخبار التي لا أصل لها وبُنِيَتْ على باطل لا بد مع مرور الأزمان وتداول الناس وأهل البحث من انكشاف ضعفها وخمول ذكرها، كما يشاهد في كثيرٍ من الأخبار الكاذبة والأراجيف الطارئة، ومعجزات نبينا ﷺ لا تزداد مع مرور الزمان إلا ظهورًا، ومع تداول الفرق وكثرة طعن العدو وحرصه على توهينها وتضعيف أصلها وإجهاد الملحد على إطفاء نورها إلا قوةً وقبولًا، ولا للطاعن عليها إلا حسرةٌ وغليلاً، وكذلك إخباره عن الغيوب وإنباؤه بما يكون وكان معلومٌ من آياته على الجملة بالضرورة، وهذا حقٌّ لا غطاء عليه.

فصل في إعجاز القرآن

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن كتاب الله العزيز منطوق على وجوه من الإعجاز كثيرة، وتحصيلها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه:

أولها: حُسن تأليفه، والتَّيَّامُ كلمه، وفصاحته، ووجوه إيجازه، وبلاغته الخارقة عادة العرب؛ وذلك أنهم كانوا أربابَ هذا الشأن وفرسانَ الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم ما لم يُخَصَّ به غيرهم من الأمم، وأوتُوا من ذَرَابَةِ اللسان ما لم يُؤْتَ إنسان، ومن فَصْلِ الخطاب ما يقيّد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقًا، وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدْلُون به إلى كل سبب؛ فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوسَّلون ويتوصَّلون، ويرفعون ويضعون، فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته وفُصِّلَت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، صارخًا بهم في كل حينٍ ومُقرِّعًا لهم بضعة وعشرين عامًا على رؤوس الملائم جمعين. ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ

تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٠٤﴾ قُلْ لِّينِ
 اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
 بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١٠٥﴾ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴿١٠٦﴾ فَلَمْ يَزَلْ
 يُقَرِّعُهُمْ ﷺ أَشَدَّ التَّقْرِيعِ وَيَوْبُخُهُمْ غَايَةَ التَّوْبِيخِ وَيَسْفِهْ أَحْلَامَهُمْ
 وَيَحِطُّ أَعْلَامَهُمْ وَيَسْتَبِيحُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَهُمْ فِي كُلِّ هَذَا
 نَاكِصُونَ عَنْ مَعَارِضَتِهِ، مُحْجَمُونَ عَنْ مِمَّا ثَلَّثَهُ، يَخَادِعُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالتَّشْغِيبِ
 بِالتَّكْذِيبِ وَالْإِغْرَاءِ بِالْإِفْتِرَاءِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا
 سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾، و﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، و﴿إِفْكٌ أَفْتَرْتَهُ﴾، و﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾،
 وَالمَبَاهِطَةِ وَالرَّضَى بِالدُّنْيَا كَقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، و﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ
 مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي أَذَانِنَا وَقُرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾، و﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا
 الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وَالْإِدْعَاءُ مَعَ الْعِزِّ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ
 لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، وَقَدْ قَالَ لَهُمُ اللَّهُ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾، فَمَا فَعَلُوا وَلَا قَدَرُوا،
 وَمِنْ تَعَاطَى ذَلِكَ مِنْ سُخْفَائِهِمْ كُمُوسِلِمَةِ كُشِفَ عَوَارِهِ لَجْمِيعِهِمْ، وَسَلْبِهِمْ
 اللَّهُ مَا أَلْفَوْهُ مِنْ فَصِيحِ كَلَامِهِمْ، وَإِلَّا فَلَمْ يَخَفَ عَلَى أَهْلِ الْمَيْزِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ
 مِنْ نَمَطِ فَصَاحَتِهِمْ وَلَا جَنْسِ بِلَاغَتِهِمْ، بَلْ وَلَّوْا عَنْهُ مَدْبِرِينَ، وَأَتَوْا مُذْعِنِينَ
 مِنْ بَيْنِ مَهْتَدٍ وَبَيْنِ مَفْتُونٍ.

ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ
 يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

وَالْبَغْيَ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدقٌ ^(١) وإن أعلاه لمثمرٌ، ما يقول هذا بشرٌ ^(٢).

وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فسجد وقال: سجدت لفصاحته، وسمع آخر رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحكى أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق، فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يُحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرى المسلمين يقرأ آيةً من كتابكم فتأملتها، فإذا قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها: قاتلك الله ما أفصحك! فقالت أويعدُّ هذا فصاحةً بعد قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَأَلَقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۚ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؟، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. فهذا نوعٌ من إعجازه منفردٌ بذاته غير مضافٍ إلى غيره.

(١) المغدق المروي، والكثير الماء..

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٥٥٠).

وكون القرآن أتى به النبي ﷺ من عند الله معلومٌ ضرورة^(١)، وكونه ﷺ متحدثاً به معلومٌ ضرورةً، وعجز العرب عن الإتيان به معلومٌ ضرورةً، وكونه في فصاحته خارقاً للعادة معلومٌ ضرورةً للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة، وسبيلٌ من ليس من أهلها علمٌ ذلك بعجز المنكرين من أهلها عن معارضته واعتراف المقرين بإعجاز بلاغته، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَتَّارُ أُنَبِّئُكَ مَاءُكَ وَنَسَمَاءُ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وأشباهاها من الآي بل أكثر القرآن حققت ما بينته من إيجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عبارتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها وأن تحت كل لفظة منها جملاً كثيرةً وفصولاً جمّةً وعلومًا زواجر مُلئت الدواوين من بعض ما استفيد منها وكثرت المقالات في المستنبطات عنها، ثم هو في سرد القصص الطوال وأخبار القرون السوالم - التي يضعف في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان - آيةً لتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه، كقصّة يوسف على طولها، ثم

(١) أي: بدهاة لا تحتاج إلى فكر وبحث.

إذا ترددت قصصُه اختلفت العبارات عنها على كثرة تردها حتى تكاد كلُّ
واحدةٍ تنسي في البيان صاحبها وتُنَاصِفُ في الحسن وجه مقابِلتها، ولا نفورَ
للنفوس من ترديدها ولا معاداةٍ لِمُعَادِها.



فصل

الوجه الثاني من إعجازه صورة نظمه العجيب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها والأسلوب البديع الذي جاء عليه ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم وتدلّعت^(١) دونه أحلامهم، ولم يبتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر.

ولما سمع كلامه ﷺ الوليد بن المغيرة وقرأ عليه القرآن رق، فجاءه أبو جهل منكراً عليه، قال: والله ما منكم أحد أعلم بالأشعار مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا.

وفي خبره الآخر حين جمع قريشاً عند حضور الموسم وقال: إن وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً، فقالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، ما هو بزمرتته ولا سجعه، قالوا: مجنون، قال: ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته قالوا: فنقول شاعر قال: ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه، ما هو بشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده، قالوا: فما نقول؟ قال: ما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه باطل، وإن

(١) من الدله، وهو ذهاب الفؤاد من هم ونحوه.

أقرب القول أنه ساحر؛ فإنه سحرٌ يُفَرِّق بين المرء وابنه والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته، فتفرقوا وجلسوا على السُّبُل يحذِّرون الناس فأنزل الله تعالى في الوليد: ﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝۱۱ وَجَعَلْتُ لَهُ، مَا لَا مَمْدُودًا ۝۱۲ وَبَيْنَ شُهُودًا ۝۱۳ وَمَهَّدْتُ لَهُ، تَمْهِيدًا ۝۱۴ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝۱۵﴾ كَلَّا إِنَّهُ، كَانَ لِآيِنِنَا عَيْنِدَا ۝۱۶ سَازِهُهُ، صَعُودًا ﴿۱۶﴾.

وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن: يا قوم، قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته، والله لقد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة.

وفي حديث إسلام أبي ذر رضي الله عنه ووصف أخاه أنيساً فقال: والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس، لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم، وأنه انطلق إلى مكة وجاء إلى أبي ذر بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعرٌ كاهنٌ ساحرٌ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعته على أقرأء^(١) الشعر فلم يَلْتَمِمْ، وما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر، وإنه لصادقٌ وإنهم لكاذبون^(٢).

والأخبار في هذا صحيحة كثيرة، والإعجاز بكل واحدٍ من النوعين الإيجاز والبلاغة بذاتها والأسلوب الغريب بذاته، كل واحدٍ منهما نوع إعجازٍ على التحقيق لم تقدر العرب على الإتيان بواحدٍ منهما؛ إذ كل واحدٍ

(١) أي: أنواع وطرق.

(٢) صحيح مسلم (٤/١٩١٩).

خارج عن قدرتها مبينٌ لفصاحتها وكلامها، وإلى هذا ذهب غير واحدٍ من أئمة المحققين.

ووجه عجزهم عنه أن ما جمع في قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وإيجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لا يصحُّ أن يكون في مقدور البشر، وأنه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كإحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصى.



فصل

الوجه الثالث من الإعجاز ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد على الوجه الذي أخبر، كقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾، وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ﴾ ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، فكان جميع هذا كما قال؛ فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في الإسلام أفواجا، فما مات ﷺ وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب كما قال ﷺ: «زُويت لي الأرض، فأريت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها»^(١).

وقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، فكان كذلك، لا يكاد يُعَدُّ مَنْ سعى في تغييره وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة لا سيما

(١) صحيح مسلم (٤/٢٢١٥).

القرامطة، فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم، فما قدرُوا على إطفاء شيء من نوره ولا تغيير كلمة من كلامه، ولا تشكيك المسلمين في حرفٍ من حروفه والحمد لله.

ومنه قوله: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾، وقوله: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وقوله: ﴿لَنْ يَضُرَّوْكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَكُونُوا يَوْمَئِذٍ حُرّاً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَبَاسٌ وَلَا يَنْصُرُونَ﴾، فكان كل ذلك.

وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالمهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، وقوله: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ الآية، وقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، وقوله: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعَنَا لَيْتَ بَالِ لِسِنِّنِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾، وقد قال مبدياً ما قدره الله واعتقده المؤمنون يوم

بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، ولما نزلت بشر النبي ﷺ بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم، وكان المستهزؤون نفراً بمكة، ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعَصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله، والأخبار بذلك معروفة صحيحة.



فصل

الوجه الرابع ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلُّم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه ويأتي به على نصّه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه وأن مثله لم ينله بتعليم، وقد علموا أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدرسة ولا مثافنة^(١) ولم يغب عنهم ولا جهل حاله أحد منهم.

وقد كان أهل الكتاب كثيرًا ما يسألونه ﷺ عن هذا فينزل عليه من القرآن ما يتلو عليهم منه ذكرًا، كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر ويوسف وإخوته وأصحاب الكهف وذو القرنين ولقمان وابنه وأشباه ذلك من الأنبياء وبدء الخلق وما في التوراة والإنجيل والزبور وصُحُف إبراهيم وموسى مما صدّقه فيه العلماء بها ولم يقدرُوا على تكذيب ما ذكر منها، بل أذعنوا لذلك، فمن موفّق آمن بما سبق له من خير، ومن شقيّ معاند حاسد، ومع هذا لم يُحكَّ عن واحدٍ من النصاري واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما في كتبهم وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم وكثرة سؤالهم له ﷺ وتعنيهم إياه عن أخبار أنبيائهم وأسرار علومهم أنه أنكر ذلك أو كذبه، بل أكثرهم

(١) المثافنة المواظبة.

صَرَّحَ بصحة نبوته وصدق مقالته واعترف بعناده وحسده إياه كأهل نجران وابن صوريا وابني أخطب وغيرهم.

وَمَنْ باهت في ذلك بعض المباهة وادَّعى أن فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة دُعي إلى إقامة حجته وكشف دعوته، ف قيل له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٣) فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٤﴾، فقرَّع ووبَّخ ودعا إلى إحضار ممكن غير ممتنع، فَمِنْ معترفٍ بما جحدته ومُتَوَاقِحٍ يلقي على فضيحتة من كتابه يده، ولم يُؤثِّرْ أن واحداً منهم أظهر خلاف قوله من كتبه ولا أبدى صحيحاً ولا سقيماً من صحفه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.



فصل

هذه الوجوه الأربعة من إعجازه بيّنة لا نزاع فيها ولا مِرية، ومن الوجوه البينة في إعجازه من غير هذه الوجوه أي وردت بتعجيز قوم في قضايا وإعلامهم أنهم لا يفعلونها، فما فعلوا ولا قدروا على ذلك كقوله لليهود: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾.

قال أبو إسحاق الزجاج: في هذه الآية أعظم حجة وأظهر دلالة على صحة الرسالة؛ لأنه قال لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ وأعلمهم أنهم لن يتمنوه أبداً فلم يتمنه واحد منهم (١).

قال أبو محمد الأصيلي: من أعجب أمرهم أنه لا يوجد منهم جماعة ولا واحد من يوم أمر الله بذلك نبيه يقدم عليه ولا يجيب إليه، وهذا موجود مشاهد لمن أراد أن يمتحنه منهم.

وكذلك آية المباهلة من هذا المعنى حيث وفد عليه أساقفة نجران وأبوا الإسلام فأنزل الله تعالى عليه آية المباهلة بقوله: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، فامتنعوا منها

(١) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/ ٧٥).

وَرَضُوا بِأَدَاءِ الْجَزِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَاقِبَ عَظِيمَهُمْ قَالَ لَهُمْ: قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَّهُ مَا لَا عَن قَوْمًا نَبِيٌّ قَطُّ فَبَقِيَ كَبِيرُهُمْ وَلَا صَغِيرُهُمْ ^(١).

ومثله قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾، فأخبرهم أنهم لا يفعلون كما كان، وهذه الآية أدخل في باب الإخبار عن الغيب ولكن فيها من التعجيز ما في التي قبلها.



(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٥٨٣)، تفسير الطبري (٥/٤٧١).

فصل

ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه والهيبة التي تعزيهم عند تلاوته لقوة حاله وإنافة خطره، وهي على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورًا كما قال تعالى، ويودُّون انقطاعه لكرهتهم له.

وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته تُوليه انجذابًا وتكسبه هشاشة ليل قلبه إليه وتصديقه به، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَاهَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ويدل على أن هذا شيءٌ خُصَّ به أنه يعتري من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي عن نصراني أنه مرَّ بقاريٍّ فوقف يبكي، فقيل: له مم بكيت؟ قال: للشجا والنظم.

وهذه الروعة قد اعتزت جماعة قبل الإسلام وبعده، فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن به ومنهم من كفر.

فحكى في الصحيح عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ

شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿١﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿الْمُصِيطِرُونَ﴾ ﴿٢﴾ كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ ^(١). وَفِي رَوَايَةٍ: وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا وَقَرَ الْإِسْلَامَ فِي قَلْبِي ^(٢).

وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبي ﷺ فيما جاء به من خلاف قومه، فتلا عليهم: ﴿حَمْدٌ ^(١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ^(٢) كَذَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ^(٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ^(٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْءَ آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا بِمَا نَحْمِلُ ^(٥) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ^(٦) وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ^(٧) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ^(٨) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ^(٩) قُلْ أَتَيْتُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(١٠) وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَى مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ ^(١١) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ^(١٢) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ^(١٣) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١﴾، فَأَمْسَكَ عَتَبَةً بِيَدِهِ عَلَى فِي النَّبِيِّ ﷺ وَنَاشَدَهُ الرَّحْمَنُ أَنْ يَكْفَ. وَفِي رَوَايَةٍ: فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ وَعَتَبَةُ مُضْغٌ مُلْتَقِي يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مَعْتَمِدٌ عَلَيْهِمَا حَتَّى انْتَهَى

(١) صحيح البخاري (٦/ ١٤٠).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٨٦).

إلى السجدة، فسجد النبي ﷺ وقام عتبة لا يدري بمُراجعته، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قومه حتى أتوه، فاعتذر لهم وقال: والله لقد كلمني بكلام، والله ما سمعتُ أذناي بمثله قط فما دريت ما أقول له ^(١).

وقد حُكي عن غير واحد ممن رام معارضته أنه اعترته روعة وهيبة كفَّ بها عن ذلك، فحكي أن ابن المقفَّع طلب ذلك ورامه وشرع فيه، فمر بصبيٍّ يقرأ: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَسْمَأْهِ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، فرجع فمحا ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارض، وما هو من كلام البشر، وكان من أفصح أهل وقته ^(٢).

وكان يحيى بن حكم الغزال ^(٣) بليغ الأندلس في زمنه، فحُكي أنه رام شيئاً من هذا فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها، قال: فاعترتني منه خشيةٌ ورقةٌ حملتني على التوبة والإنابة.



(١) دلائل النبوة للبيهقي (٢/ ٢٠٣).

(٢) انظر: تفسير الماوردي.

(٣) بتخفيف الزاي، شاعر أندلسي.

فصل

ومن وجوه إعجازه المعدودة كونه آيةً باقية لا تُعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله تعالى بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾.

وسائر معجزات الأنبياء انقضت بانقضاء أوقاتها فلم يبق إلا خبرها، والقرآن العزيز الباهرة آياته الظاهرة معجزاته على ما كان عليه لأول نزوله إلى وقتنا هذا، حجته قاهرةٌ ومعارضته ممتنعة، والأعصار كلها طافحةٌ بأهل البيان وحملة علم اللسان وأئمة البلاغة وفرسان الكلام وجهابذة البراعة، والملحد فيهم كثير، والمعادي للشرع عتيْدٌ، فما منهم من أتى بشيء يُؤثّر في معارضته ولا أَلْفَ كلمتين في مناقضته، ولا قدر فيه على مطعن صحيح، ولا قدح المتكلف من ذهنه في ذلك إلا بزند شحيح، بل المأثور عن كل من رام ذلك إلقاءه في العجز بيديه والنكوص على عقبيه.



فصل وجوه أخرى للإعجاز

وقد عدَّ جماعةٌ من الأئمة ومقلدي الأمة في إعجازه وجوهاً كثيرةً، منها: أن قارئه لا يَمَلُّه وسامعه لا يَمُجُّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوةً وترديده يوجبُ له محبةً لا يزال غُضًّا طريًّا، وغيره من الكلام ولو بلغ في الحسن والبلاغة مبلغه يُمَلُّ مع الترديد ويعادى إذا أُعيد، وكتابتنا يُستلذُّ به في الخلوات ويُؤنس بتلاوته في الأزمات، وسواه من الكتب لا يوجد فيها ذلك، حتى أحدث أصحابها لها لُحُونًا وطُرُقًا يستجلبون بتلك اللحون تنشيطهم على قراءتها، أما القرآن فإنه لا يَخْلُقُ على كثرة الردِّ ولا تنقضي عبْرُهُ ولا تفنى عجائبه، هو الفصل ليس بالهزل لا يشبعُ منه العلماء ولا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة، هو الذي لم تنته الجن حين سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ٢.

ومنها: جمعه لعلوم ومعارف لم تُعهد العرب عامةً ولا محمدٌ ﷺ قبل نبوته خاصةً بمعرفتها ولا القيام بها، ولا يحيط بها أحدٌ من علماء الأمم، ولا يشتمل عليها كتابٌ من كتبهم، فجمع فيه من بيان علم الشرائع والتنبيه على طرق الحجج العقلية والردِّ على فرق الأمم ببراهين قوية وأدلة بينة سهلة الألفاظ موجزة المقاصد، رام المُتَحَذِّقُونَ بعدُ أن ينصبوا أدلَّةً مثلها، فلم يقدروا عليها؛ كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ﴾، وقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، وقوله:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ إلى ما حواه من علوم السَّيَرِ وأنباء الأُمَمِ والمواعظ والحِكَمِ وأخبار الدار الآخرة ومحاسن الآداب والشَّيَمِ، قال الله جل اسمه: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، وقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾، فجمع فيه مع وجازة ألفاظه وجوامع كلمه أضعاف ما في الكتب قبله التي ألفاظها على الضعف منه مرات.

ومنها: جمعه فيه بين الدليل ومدلوله؛ وذلك أنه احتجَّ بنظم القرآن وحسن رصفه وإيجازه وبلاغته وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعدته ووعيده، فالتالي له يفهم موضع الحجة والتكليف معاً من كلام واحد وسورة منفردة.

ومنها: تيسيره تعالى حفظه لتعليمه وتقريبه على متحفظيه، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾، وسائر الأُمَم لا يحفظ كتبها الواحد منهم فكيف الجماء على مرور السنين عليهم، والقرآن ميسَّر حفظه للعلَّمان في أقرب مدة.

ومنها: مشاكلة بعض أجزائه بعضاً، وحسن ائتلاف أنواعها والتَّامُّ أقسامها، وحسن التخلص من قصةٍ إلى أخرى، والخروج من بابٍ إلى غيره على اختلاف معانيه، وانقسام السورة الواحدة إلى أمر ونهي وخبر واستخبار

ووعده ووعيد وإثبات نبوة وتوحيد وترغيب وترهيب، إلى غير ذلك من فوائده دون خللٍ يتخلل فصوله.

ومنها: الجملة الكثيرة التي انطوت عليها الكلمات القليلة. وهذا كله في إعجاز القرآن إلى وجوه كثيرة ذكرها الأئمة لم نذكرها، والله ولي التوفيق.



فصلُ انشقاق القمر

قال الله تعالى: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۖ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾. أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع أهل السنة على وقوعه.

عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين فرقة فوق الجبل وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»^(١).

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: انشق القمر ونحن مع النبي ﷺ^(٢).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر مرتين حتى رأوا حراء بينهما^(٣).



(١) صحيح البخاري (١٤٢/٦).

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (١٧٧/٢).

(٣) صحيح البخاري (١٤٠/٦).

فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أما الأحاديث في هذا فكثيرةٌ جداً.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه، فأُتِيَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوضوء فوضع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك الإناء يده وأمر الناس أن يتوضؤوا منه. قال: فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضؤوا من عند آخرهم ^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينما نحن مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اطلبوا من معه فضل ماء»، فأُتِيَ بماء فصبه في إناء، ثم وضع كفه فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢).

وعن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، وأقبل الناس نحوه، وقالوا: ليس عندنا ماءٌ إلا ما في ركوتك، فوضع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. وفيه: فقلت: كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألفٍ لكفانا، كنا خمس عشرة مائة ^(٣).

(١) صحيح البخاري (٤٥ / ١)، وصحيح مسلم (٤ / ١٧٨٣).

(٢) صحيح البخاري (٤٥ / ١)، وصحيح مسلم (٤ / ١٧٨٣).

(٣) صحيح البخاري (٤ / ١٩٣).

وفي ذكر غزوة بُواط قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا جابر، نادِ الوضوء»، وذكر الحديث بطوله، وأنه لم يجد إلا قطرةً في عزلاء شَجَب^(١)، فأُتي به النبي ﷺ، فغمزه وتكلم بشيء لا أدري ما هو وقال: «نادِ بجفنة الركب»، فأُتيت فوضعتها بين يديه، وذكر أن النبي ﷺ بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه، وصبَّ جابر عليه، وقال: بسم الله. قال: فرأيت الماء يفور من بين أصابعه، ثم فارت الجفنة، واستدارت حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء، فاستقوا حتى رَوُوا، فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي مملأة^(٢).

ومثل هذا في هذه المواطن الحفلة والجموع الكثيرة لا تتطرق التهمة إلى المحدث به؛ لأنهم كانوا أسرع شيء إلى تكذيبه لما جبلت عليه النفوس من ذلك، ولأنهم كانوا ممن لا يسكت على باطل، فهؤلاء قد رَوُوا هذا وأشاعوه ونسبوا حضور الجماء الغفير له ولم ينكر أحد من الناس عليهم ما حدثوا به عنهم أنهم فعلوه وشاهدوه، فصار كتصديق جميعهم له.

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعائه بمسه ودعوته، عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قصة غزوة تبوك وأنهم وردوا العين وهي تَبِضُّ بشيء من ماءٍ مثل الشراك، فغرفوا من العين بأيديهم حتى اجتمع في شيء، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه وأعادها فيها، فجرت بماء كثير،

(١) العزلاء فم القرية، والشجب السقاء الذي قد بلي وصار شناً.

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٣٠٧).

فاستقى الناس. قال في رواية: فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ها هنا قد ملئ جناً»^(١).

وفي حديث البراء وسلمة بن الأكوع رضي الله عنهما في قصة الحديبية: وهم أربع عشرة مائة وبئرها لا تروي خمسين شاة، فنزحناها فلم نترك فيها قطرة فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على جباها^(٢). قال البراء: وأتي بدلو منها فبصق فدعا. وقال سلمة: فإما دعا وإما بصق فيها فجاشت فأرووا أنفسهم وركابهم^(٣).

وعن أبي قتادة رضي الله عنه وذكر أن الناس شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العطش في بعض أسفاره، فدعا بالمليضة فجعلها في ضبته^(٤)، ثم التقم فمها، فالله أعلم نفت فيها أم لا، فشرب الناس حتى رَوْوا وملؤوا كل إناء معهم، فخيّل إلي أنها كما أخذها مني، وكانوا اثنين وسبعين رجلاً^(٥).

ومن ذلك حديث عمران بن حصين رضي الله عنه حين أصاب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عطش في بعض أسفارهم، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهما أنهما يجدان امرأة بمكان كذا معها بعير عليه مزادتان... الحديث، فوجداها وأتيا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل في إناء من مزادتيها وقال فيه ما شاء الله أن يقول، ثم أعاد الماء في المزادتين، ثم فتحت عزاليهما^(٦) وأمر

(١) صحيح مسلم (٤/١٧٨٤).

(٢) الجبا مقصوراً: ما حول البئر.

(٣) حديث البراء في صحيح البخاري (٥/١٢٢)، وحديث سلمة في صحيح مسلم (٣/١٤٣٣).

(٤) الضبن الإبط وما يليه.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/٤١٢).

(٦) جمع عزلاء، وهي فم القربة، تقدم.

الناس فملؤوا أسقيتهم حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملؤوه. قال عمران: ويخيل إليّ أنهما لم تردادا إلا امتلاءً، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد حتى ملأ ثوبها، وقال النبي ﷺ: «إنا لم نأخذ من مائك شيئاً، ولكن الله سقانا»^(١).

وعن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال نبي الله ﷺ: «هل من وضوء؟» فجاء رجلٌ بإداوةٍ فيها نطفةٌ، فأفرغها في قدح، فتوضأنا كلنا نُدْغِفُقه دَغْفِقَةً^(٢) أربع عشرة مائة^(٣).

وفي حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جيش العسرة وذكر ما أصابهم من العطش، حتى إن الرجل لينحر بعيه فيعصر فرثه فيشر به، فرغب أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النبي ﷺ في الدعاء، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء^(٤) فانسكبت، فملؤوا ما معهم من آنية، ولم تجاوز العسكر^(٥).



(١) صحيح البخاري (٧٦/١)، وصحيح مسلم (٤٧٤/١).

(٢) أي: صبّه صبّاً كثيراً.

(٣) صحيح مسلم (١٣٥٤/٣).

(٤) أي: أرعدت وغيّمت وتهيأت.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢٢٣/٤)، والحاكم في المستدرک (٢٦٣/١).

فصل

ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستطعمه فأطعمه شطر وسقٍ شعير فما زال يأكل منه وامرأته وضيغه حتى كاله، فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره، فقال: «لو لم تكِّله لأكلتم منه ولقام لكم»^(١).

ومن ذلك حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشهور وإطعامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمانين أو سبعين رجلاً من أقراص من شعير جاء بها أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تحت يده -أي إبطه- فأمر بها ففتت وقال فيها ما شاء الله أن يقول^(٢).

وحديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في إطعامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق، وقال جابر: فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن بُرمتنا لتعط كما هي وإن عجينا ليخبز، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصق في العجين والبرمة وبارك^(٣).

وعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقصعة فيها لحم فتعاقبوها من غدوة حتى الليل يقوم قوم ويقعد آخرون^(٤).

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٧٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٩٣)، وصحيح مسلم (٣/ ١٦١٢).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٠٨)، وصحيح مسلم (٣/ ١٦١٠).

(٤) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٩٣)، وأحمد (٣٣/ ٣٦١).

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثين ومائةً، وذكر في الحديث أنه عُجِنَ صاع من طعام وصُنِعَتْ شاةٌ، فشَوِيَ سواد بطنها^(١). قال: وايم الله ما من الثلاثين ومائةٍ إلا وقد حَزَّ له حُزَّةٌ من سواد بطنها ثم جعل منها قصعتين، فأكلنا أجمعون وفضل في القصعتين، فحملته على البعير^(٢).

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومثله لسلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن خمصةً أصابت الناس مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض مغازيه، فدعا ببقية الأزواد فجاء الرجل بالخشية من الطعام وفوق ذلك، وأعلاههم الذي أتى بالصاع من التمر، فجمعه على نطع، - قال سلمة: فحزرتة كَرُبْصَة العنز -، ثم دعا الناس بأوعيتهم، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملأوه، وبقي منه قدر ما جعل وأكثر^(٣).

ومن ذلك حديث جابر في دين أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد موته وقد كان بذل لغرماء أبيه أصل ماله فلم يقبلوه، ولم يكن في ثمرها ستين كَفَافٌ دَيْنَهُمْ، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن أمره بجذِّها وجعلها بيادر في أصولها فمشى فيها ودعا، فأوفى منه جابر غُرماء أبيه وفضل مثل ما كانوا يُجِدُّون^(٤) كل سنة،

(١) أي: كبدها.

(٢) صحيح البخاري (٦٩/٧)، وصحيح مسلم (١٦٢٦/٣).

(٣) حديث سلمة في صحيح مسلم (١٣٥٤/٣)، وحديث عبد الرحمن بن أبي عمرة أخرجه أحمد (١٨٥/٢٤).

(٤) من الجداد، وهو صرام النخل وقطع ثمرها.

وفي رواية مثل ما أعطاهم، قال: وكان الغرماء يهود فعجبوا من ذلك^(١).

ومنه أيضاً حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أصابه الجوع فاستتبعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوجد لبناً في قدح قد أهدي إليه وأمره أن يدعو أهل الصفة، قال: فقلت ما هذا اللبن فيهم؟ كنت أحق أن أصيب منه شربةً أتقوى بها، فدعوتهم وذكر أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له أن يسقيهم، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يأخذه الآخر حتى روي جميعهم. قال: فأخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القدح وقال: «بقيت أنا وأنت، اقعد فاشرب»، فشربت ثم قال: «اشرب»، وما زال يقولها وأشرب حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلماً، فأخذ القدح، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة^(٢).

وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصنعت أُمي أم سليم حيساً فجعلته في تور، فذهبتُ به إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ضعه وادع لي فلاناً وفلاناً ومن لقيت»، فدعوتهم ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملؤوا الصفة والحجرة، فقال لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تحلقوا عشرةً عشرةً»، ووضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على الطعام فدعا فيه وقال ما شاء الله أن يقول، فأكلوا حتى شبعوا كلهم، فقال لي: «ارفع»، فما أدري حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت^(٣).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١٤/٤).

(٢) صحيح البخاري (٩٦/٨).

(٣) صحيح مسلم (١٠٥١/٢).

فصل في كلام الشجر وشهادتها له بالنبوة وإجابته دعوته

وفي الصحيح في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه الطويل قال: ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما فأخذ بغصنٍ من أغصانها فقال: «انقادي عليّ ياذن الله» فانقادت معه كالبعير المخشوش ^(١) الذي يصانع قائده، وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك حتى إذا كان بالمنصف بينهما قال: «التئما عليّ ياذن الله» فالتأمتا. وفي رواية أخرى: فقال: «يا جابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله ﷺ: الحقني بصاحبك حتى أجلس خلفكما»، فزحفت حتى لحقت بصاحبتها فجلس خلفها، فخرجت أحضر وجلست أحدث نفسي فالتفت فإذا رسول الله ﷺ مقبلاً والشجرتان قد افتترقتا، فقامت كل واحدة منهما على ساق فوقف رسول الله ﷺ وقفه فقال برأسه هكذا يميناً وشمالاً ^(٢).

ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ -ورآه حزيناً-: «أحب أن أريك آية؟ قال: نعم، فنظر رسول الله ﷺ

(١) هو البعير الذي يجعل في أنفه خشاش أي: عود إذا كان البعير صعباً، ليذل وينقاد.

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٣٠٦).

إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع تلك الشجرة فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه، قال: مرها فلترجع، فعادت إلى مكانها^(١).

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: «أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ هَذَا الْعَذَقَ مِنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» قَالَ نَعَمْ، فَدَعَاهُ فَجَعَلَ يَنْقُزُ حَتَّى أَتَاهُ فَقَالَ ارْجِعْ فَعَادَ إِلَى مَكَانِهِ^(٢).



(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٦/٢)، وأحمد (١٦٥/١٩).

(٢) جامع الترمذي (٥٩٤/٥).

فصل في قصة حنين الجذع

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخيل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذعٍ منها، فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العِشار^(١).

وفي رواية: حتى ارتجَّ المسجد بخواره^(٢)، وفي أخرى: حتى تصدع وانشق حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكت^(٣).

وفي أخرى: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر»^(٤).

وفي رواية: «والذي نفسي بيده لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة»، تحزناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٥).

وفي رواية عن أبي رضي الله عنه قال: فكان إذا صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلى إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي^٦، فكان عنده إلى أن أكلته الأرض وعاد رفاتاً^(٦).

فكان الحسن إذا حدث بهذا بكى وقال: يا عباد الله الخشبة تحن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه لمكانه فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه^(٧).

(١) صحيح البخاري (١٩٥/٤).

(٢) صحيح ابن خزيمة (١٤٠/٣)، وشرح مشكل الآثار (٣٧٨/١٠).

(٣) سنن الدارمي (١٨٠/١).

(٤) مسند أحمد (١١٧/٢٢)، وصحيح ابن خزيمة (١٤٠/٣).

(٥) سنن الدارمي (١٨٤/١)، وشرح مشكل الآثار (٣٧٨/١٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٥٤/١)، وأحمد (١٧٢/٣٥).

(٧) الزهد لابن المبارك (ص ٣٦١)، ومسند أبي يعلى (١٤٢/٥)، وصحيح ابن حبان (٤٣٧/١٤).

فصل فيما جاء في الطعام والشجر والحجر

- عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال لقد كنا نسمع تسييح الطعام وهو يؤكل ^(١).
- وفي غير هذه الرواية عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا نأكل مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطعام ونحن نسمع تسييحه ^(٢).
- وقال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كنا بمكة مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج إلى بعض نواحيها، فما استقبله شجرة ولا جبلٌ إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله ^(٣).
- وعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي» ^(٤).
- وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: صعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبو بكرٍ وعمر وعثمان أخذاً فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان» ^(٥).



(١) صحيح البخاري (٤/١٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٥٩٧)، وابن خزيمة في صحيحه (١/١٠٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٦/٢٥)، والحاكم في المستدرک (٢/٦٧٧).

(٤) صحيح مسلم (٤/١٧٨٢).

(٥) صحيح البخاري (٥/٩).

فصل في الآيات في ضروب الحيوانات

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان عندنا داجن^(١)، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ قر وثبت مكانه فلم يجرى ولم يذهب، وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب^(٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما - في قصة شكوى جمل - قال: وكان لا يدخل أحدُ الحائط إلا شد عليه الجمل، فلما دخل عليه النبي ﷺ دعاه، فوضع مشفره على الأرض وبرك بين يديه، فخطمه، وقال: «ما بين السماء والأرض شيء إلا يعلم أني رسول الله إلا عاصي الجن والإنس»^(٣).

وفي خبر آخر في حديث الجمل أن النبي ﷺ سألهم عن شأنه، فأخبروه أنهم أرادوا ذبحه. وفي رواية: أن النبي ﷺ قال لهم: «إنه شكَا كثرة العمل وقلة العلف»^(٤).

وعن عبد الله بن قُرْطٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُرِبَ إلى النبي ﷺ بدناتٌ خمس أو ست أو سبع لينحرها يوم عيد، فازدلفن إليه بأيمن ييداً^(٥).

(١) هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم ولا يبعث بها إلى المرعى.

(٢) أخرجه أحمد (٤١/٣٢٠)، والبزار في مسنده (١٨/٢٣٠).

(٣) أخرجه أحمد (٢٢/٢٣٦)، والدارمي في سننه (١/١٦٩).

(٤) أخرجه أحمد (٢٩/١٠٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٢/١٤٨)، وأحمد (٣١/٤٢٧).

ومن هذا الباب ما روي من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ إذ وجهه إلى معاذ باليمن، فلقي الأسد فعرفه أنه مولى رسول الله ﷺ ومعه كتابه، فهمهم وتنحى عن الطريق، وذكر في منصرفه مثل ذلك^(١). وفي رواية أخرى عنه: أن سفينةً تكسرت به فخرج إلى جزيرة، فإذا الأسد فقلت: أنا مولى رسول الله ﷺ فجعل يغمزني بمنكبه حتى أقامني على الطريق^(٢).



(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٦٧٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٢٨١)، والبخاري (٩/ ٢٨٥).

فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات

أصيب يوم أُحُد عين قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حتى وقعت على وجنته،
 فردها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانت أحسن عينه ^(١).
 وتفل في عيني علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم خيبر وكان رَمَدًا فأصبح بارئاً ^(٢). ونفث
 على ضربةٍ بساق سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم خيبر فبرئت ^(٣). واشتكى علي
 ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فجعل يدعو، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهم اشفه -أو
 عافه-» ثم ضربه برجله، فما اشتكى ذلك الوجع بعد ^(٤).



(١) أخرجه ابن إسحاق (ص ٣٢٩)، وابن هشام في السيرة (٢/ ٨٢).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٣٤)، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٧٢).

(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٣٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٥٦٠)، وأحمد (٢/ ٢٠٥).

فصل في إجابة دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وهذا باب واسع جدًا، وإجابة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجماعة بما دعاهم وعليهم متواتر على الجملة معلومٌ ضرورة.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قالت أُمِّي: يا رسول الله، خادمك أنس ادع الله له، قال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما آتيتَه»^(١).

ومن رواية عكرمة قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فو الله إن مالي لكثيرٌ وإن ولدي وولد ولدي لَيَتَعَادُونَ اليوم على نحو المائة^(٢).

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالبركة، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجرًا لرجوت أن أصيب تحته ذهبًا^(٣).

ودعا لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجيب الله دعوته، فكان مجاب الدعوة^(٤).

ودعا لعز الإسلام بعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو بأبي جهل، فاستجيب له في عمر^(٥).

(١) صحيح البخاري (٧٣/٨)، وصحيح مسلم (٤/١٩٢٨).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٩٢٩).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/١٢٦)، وأحمد (٢١/٣٤٦).

(٤) أخرج الترمذي (٥/٦٤٩)، وابن حبان في صحيحه (١٥/٤٥٠).

(٥) جامع الترمذي (٥/٦١٧)، وصحيح ابن حبان (١٥/٣٠٥).

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر ^(١).
وأصاب الناس في بعض مغازيه عطش، فسأله أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الدعاء
فدعا، فجاءت سحابة، فسقتهم حاجتهم ثم أقلعت ^(٢).
ودعا في الاستسقاء فسُقوا، ثم شَكَّوْا إليه المطر فدعا فصَحَّوْا ^(٣).
وقال للنابعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا يُفْضِضُ اللَّهُ فَاك»، فما سقطت له سنٌّ، وفي
رواية: فكان أحسن الناس ثغراً، إذا سقطت له سنٌّ نبتت له أخرى، وعاش
عشرين ومائةً وقيل أكثر من هذا ^(٤).
ودعا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقال: «اللهم فقّهه في الدين وعلمّه
التأويل» ^(٥)، فسمّي بعد الحبر وترجمان القرآن.
ودعا لعبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئاً
إلا ربح فيه ^(٦).
ودعا بمثله لعروة بن أبي الجعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: فلقد كنت أقوم بالكناسة،
فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً، وقال البخاري في حديثه: فكان لو اشترى
التراب ربح فيه ^(٧).

(١) صحيح البخاري (٢٢/٥).

(٢) أخرجه ابن خزيمة في صحيحه (٥٢/١)، وابن حبان (٢٢٣/٤)، والحاكم في المستدرک (٢٦٣/١).

(٣) صحيح البخاري (١٢/٢)، وصحيح مسلم (٦١٢/٢).

(٤) انظر: الإصابة للحافظ ابن حجر (٢٠٩-٢١٢)، فقد أطل في ذكر طرق هذه القصة.

(٥) أخرجه أحمد (٢٢٥/٤)، وابن حبان في صحيحه (٥٢١/١٥).

(٦) أخرجه أحمد (٢٧٩/٣)، والنسائي في الكبرى (٣١٥/٧).

(٧) صحيح البخاري (٢٠٧/٤).

ودعا لأم أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَأَسْلَمَتْ (١).
 ودعا لعلِّي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَكْفِيَ الْحَرَّ وَالْقُرَّ، فَكَانَ يَلْبَسُ فِي الشِّتَاءِ ثِيَابَ
 الصَّيْفِ وَفِي الصَّيْفِ ثِيَابَ الشِّتَاءِ وَلَا يَصِيبُهُ حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ (٢).
 ودعا عَلَى مُضَرٍّ فَأَقْحَطُوا حَتَّى اسْتَعْطَفْتَهُ قَرِيشٌ فَدَعَا لَهُمْ فَسُقُوا (٣).
 ودعا عَلَى كَسْرِي حِينَ مَزَّقَ كِتَابَهُ أَنْ يُمَزَّقَ اللَّهُ مَلَكَهُ (٤)، فَلَمْ تَبْقَ لَهُ
 بَاقِيَةٌ وَلَا بَقِيَتْ لِفَارِسٍ رِيَاسَةٌ فِي أَقْطَارِ الدُّنْيَا.
 وَقَالَ لِرَجُلٍ رَأَاهُ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، فَقَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، فَقَالَ:
 «لَا اسْتَطَعْتُ» فَلَمْ يَرْفَعْهَا إِلَى فِيهِ (٥).
 وَقَالَ لَعْتَبَةَ بْنِ أَبِي لَهَبٍ: «اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْبًا مِنْ كِلَابِكَ، فَأَكَلَهُ
 الْأَسَدُ» (٦).
 وَحَدِيثُهُ الْمَشْهُورُ مِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي دُعَائِهِ عَلَى
 قَرِيشٍ حِينَ وَضَعُوا السَّلَا عَلَى رَقَبَتِهِ -وَهُوَ سَاجِدٌ- مَعَ الْفَرَسِ وَالدَّمِ،
 وَسَمَاهُمْ، وَقَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ (٧).



- (١) صحيح مسلم (٤/١٩٣٨).
- (٢) أخرجه ابن ماجه (١/٤٣)، وأحمد (٢/٣٤٢).
- (٣) صحيح مسلم (٤/٢١٥٦).
- (٤) صحيح البخاري (١/٢٣).
- (٥) صحيح مسلم (٣/١٥٩٩).
- (٦) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٥٨٨).
- (٧) صحيح البخاري (١/١١٠)، وصحيح مسلم (٣/١٤١٩).

فصل في كرامته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو باشره ﷺ

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أهل المدينة فزعوا مرةً، فركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرساً لأبي طلحة كان يَقْطُفُ -أو به قِطَافٌ^(١)، وقال غيره: يُبْطَأُ، فلما رجع قال: «وجدنا فرسك بحرّاً»، فكان بعدُ لا يجارى^(٢).
ونخس جمل جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وكان قد أعيا، فنشط حتى كان ما يملك زمامه^(٣).

وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها أخرجت جبة طيالسةً وقالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها^(٤).

وكان لأم مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَكَّةٌ تُهْدِي فيها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمناً، فأمرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا تَعْصِرَهَا ثم دفعها إليها، فإذا هي مملوءةٌ سمناً فيأتيها بنوها يسألونها الأذم وليس عندهم شيء، فتعتمد إليها فتجد فيها سمناً، فكانت تقسم أدمها حتى عصرتها^(٥).

(١) القطف السير البطي.

(٢) صحيح البخاري (٢٢/٤)، وصحيح مسلم (١٨٠٢/٤).

(٣) صحيح البخاري (١٨٩/٣)، وصحيح مسلم (١٢٢١/٣).

(٤) صحيح مسلم (١٦٤١/٣).

(٥) صحيح مسلم (١٧٨٤/٤).

ومن ذلك بركة يده فيما لمسه وغرسه لسلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حين كاتبه مواليه على ثلاثمائة وديّة^(١) يغرسها لهم كلها تعلق وتطعم^(٢)، وعلى أربعين أوقية من ذهب، فقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغرسها له بيده إلا واحدة غرسها غيره، فأخذت كلها إلا تلك الواحدة، فقلعها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وردها فأخذت^(٣).

وفي رواية: فأطعم النخل من عامه إلا الواحدة، فقلعها رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغرسها، فأطعمت من عامها^(٤).

وأعطى قتادة بن النعمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -وصلى معه العشاء في ليلة مظلمة مطيرة- عرجوناً، وقال: «انطلق به، فإنه سيضيء لك من بين يديك عشراً ومن خلفك عشراً، فإذا دخلت بيتك فسترى سواداً فاضربه حتى يخرج فإنه الشيطان»، فانطلق فأضاء له العرجون حتى دخل بيته ووجد السواد فضربه حتى خرج^(٥). ومنه بركته في دُرور الشياه الحوائل^(٦) بالبن الكثير كقصة شاة أم معبد^(٧). وغنم حليمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرضعته وشارفها^(٨). وشاة عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكانت لم ينز عليها فحل^(٩). وشاة المقداد^(١٠).

(١) هي الفسيل.

(٢) أي: تنبت ويؤكل ثمرها.

(٣) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ٢٠١-٢٠٣)، وأحمد (٣٩/ ١٤٧).

(٤) مسند البزار (١٠/ ٢٩٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٨/ ١٦٩)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ٨١).

(٦) أي: التي لم تحمل.

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (٤/ ٤٨، ٧/ ١٠٥)، والحاكم في المستدرک (٣/ ١٠).

(٨) أخرجه ابن هشام في السيرة (١/ ١٦٢)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٤٤).

(٩) أخرج القصة الطيالسي (١/ ٢٧٦)، وأحمد (٦/ ٨٢، ٧/ ٤١٦).

(١٠) القصة في صحيح مسلم (٣/ ١٦٢٥).

وكان يوجد لعتبة بن فرقد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ طيبٌ يغلب طيب نساءه؛ لأن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسح بيده على بطنه وظهره ^(١).
 ووضع يده على رأس حنظلة بن حذيم وبرك عليه فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه والشاة قد ورم ضرعها، فيوضع على موضع كف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيذهب الورم ^(٢).
 ومجّ في دلو من بئر ثم صب فيها، ففاح منها ريح المسك ^(٣).
 وأخذ قبضةً من تراب يوم حنين ورمى بها في وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»، فانصرفوا يمسحون القذى عن أعينهم ^(٤).
 وشكا إليه أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النسيان، فأمره ببسط ثوبه وغرف بيده فيه ثم أمره بضمه ففعل، فما نسي شيئاً بعد ^(٥).
 وضرب صدر جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ودعاه، وكان ذكراً له أنه لا يثبّت على الخيل، فصار من أفرس العرب وأثبتهم ^(٦). وما يروى في هذا كثير.



- (١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الأحاد والمثاني (٧٢ / ٣)، والطبراني في الكبير (١٣٣ / ١٧).
- (٢) أخرجه أحمد (٢٦٣ / ٣٤)، والطبراني في الكبير (١٣ / ٤).
- (٣) أخرجه أحمد (١٣٤ / ٣١)، والطبراني في الكبير (٥١ / ٢٢).
- (٤) صحيح مسلم (١٤٠٢ / ٣).
- (٥) صحيح البخاري (٢٠٨ / ٤، ٣٥ / ١).
- (٦) صحيح البخاري (٦٥ / ٤)، وصحيح مسلم (١٩٢٥ / ٤).

فصل

ومن ذلك ما أُطْلِع عليه من الغيوب وما يكون، والأحاديث في هذا الباب بحر لا يدرك قعره ولا ينزف غمره، وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر لكثرة روايتها واتفاق معانيها على الإطلاع على الغيب.

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء فأعرفه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ثم إذا رآه عرفه ^(١).

وقال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لقد تركنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا ^(٢).

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ به أصحابه مما وعدهم به؛ من الظهور على أعدائه، وفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق، وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ^(٣). وأن المدينة ستغزى، وتفتح خيبر على يدي عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في غد يومه، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ويؤتون من زهرتها، وقسمتهم

(١) صحيح مسلم (٤/٢٢١٧).

(٢) أخرجه أحمد (٣٥/٢٩٠)، والبزار في مسند (٩/٣٤١)، والطبراني في الكبير (٢/١٥٥).

(٣) صحيح البخاري (٤/١٩٧).

كنوز كسرى وقيصر، وما يحدث بينهم من الفتون والاختلاف والأهواء، وسلوك سبيل من قبلهم، وافتراقهم على ثلاثٍ وسبعين فرقةً الناجية منها فرقة واحدة^(١). وقتالهم الترك^(٢) والروم. وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى ولا فارس بعده، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده^(٣). وقال: «ويل للعرب من شرّ قد اقترب»^(٤). وأنه زُوِيَتْ له الأرض فأرِيَ مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمته ما زُوِيَ له منها^(٥).

ولذلك امتدت في المشارق والمغارب ما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة، حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمةٌ من الأمم، ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك.

وقوله: «لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»^(٦). ذهب ابن المديني إلى أنهم العرب؛ لأنهم المختصون بالسقي بالغرب وهي الدلو، وغيره يذهب إلى أنهم أهل المغرب، وقد ورد المغرب كذا في الحديث بمعناه^(٧).

وقال في حنظلة الغسيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سلوا زوجته عنه، فإني رأيت الملائكة تغسله»، فسألوها فقالت: إنه خرج جنباً وأعجله الحال عن الغسل، قال أبو سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ووجدنا رأسه يقطر ماءً^(٨).

(١) أخرجه ابن ماجه (١٣٢٢/٢)، وأحمد (٢٤١/١٩).

(٢) قتال الترك جاء في صحيح البخاري (٤٣/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٣٣/٤).

(٣) أخرجه الترمذي (٤٩٧/٤)، وأحمد (١٠٨/١٢).

(٤) صحيح البخاري (١٣٨/٤)، وصحيح مسلم (٢٢٠٨/٤).

(٥) صحيح مسلم (٢٢١٥/٤).

(٦) صحيح مسلم (١٥٢٥/٣).

(٧) ينظر: فتح الباري (٢٩٥/١٣).

(٨) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٩٦/١٥)، والحاكم في المستدرک (٢٢٥/٣).

وقال: «الخلافة في قريش، ولن يزال هذا الأمر في قريشٍ ما أقاموا الدين»^(١).

وقال: «يكون في ثقيف كذاب ومُبِير»، فأوهما الحجاج والمختار^(٢).
وأن مسيلمة يعقره الله^(٣). وأن فاطمة أول أهله لحوقاً به^(٤). وأنذر بالردة.
وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنةً ثم تكون ملكاً^(٥). فكانت كذلك بمدة الحسن ابن علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وأخبر بشأن أويس القرني^(٦). وبأمرء يؤخرون الصلاة عن وقتها^(٧).
وسيكون في أمته ثلاثون كذاباً فيهم أربع نسوة^(٨).

وقال: «لا تقوم الساعة حتى يسوق الناس بعصاه رجلٌ من قحطان»^(٩).
وقال: «خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم، ثم يأتي بعد ذلك قومٌ يشهدون ولا يُستشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون وينذرون ولا يُوفون، ويظهر فيهم السمن»^(١٠).

(١) هو في الصحيحين بمعناه (صحيح البخاري (٤/١٧٩)، صحيح مسلم (٣/١٤٥١).

(٢) صحيح مسلم (٤/١٩٧١).

(٣) صحيح البخاري (٤/٢٠٣)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٠).

(٤) صحيح البخاري (٤/٢٠٣)، وصحيح مسلم (٤/١٩٠٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٤/٥٠٣)، وأحمد (٣٦/٢٥٦).

(٦) صحيح مسلم (٤/١٩٦٨).

(٧) صحيح مسلم (١/٤٤٨، ٤٤٩).

(٨) صحيح البخاري (٤/٢٠٠)، وصحيح مسلم (٤/٢٢٣٩).

(٩) صحيح البخاري (٤/١٨٣)، وصحيح مسلم (٤/٢٢٣٢).

(١٠) صحيح البخاري (٤/١٧١)، وصحيح مسلم (٤/١٩٦٤).

وقال: «هلاك أمتي على يدي أغيلمة من قريش»، وقال أبو هريرة راويه: «لو شئت سميتهم لكم: بنو فلانٍ وبنو فلان»^(١).
وأخبر بقلّة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام^(٢) فلم يزل أمرهم يتبدد حتى لم يبق لهم جماعة، وأنهم سيلقون بعده أثره^(٣).
وأخبر بشأن الخوارج وصفتهم والمُخَدَّج الذي فيهم^(٤). وأن سيماهم التحليق^(٥).
ويُرى رعاء الغنم رؤوس الناس، والعراة الحفاة يتبارون في البنيان، وأن تلد الأمة ربتها^(٦).
وأن قريشًا والأحزاب لا يغزونه أبدًا، وأنه هو يغزوهم^(٧).
وأخبر بالموّتان الذي يكون بعد فتح بيت المقدس^(٨). وما وعد من سُكْنَى البصرة^(٩)، وأنهم يغزون في البحر كالملوك على الأُسرة^(١٠)، وأن الدين لو كان منوطًا بالثريا لناله رجالٌ من أبناء فارس^(١١).

(١) صحيح البخاري (٤/١٩٩، ٩/٤٧).

(٢) صحيح البخاري (٥/٣٥).

(٣) صحيح البخاري (٤/٩٨)، وصحيح مسلم (٢/٧٣٨).

(٤) صحيح مسلم (٢/٧٤٧).

(٥) صحيح البخاري (٩/١٦٢).

(٦) صحيح البخاري (٦/١١٥)، وصحيح مسلم (١/٣٦).

(٧) صحيح البخاري (٥/١١٠).

(٨) صحيح البخاري (٤/١٠١).

(٩) أخرجه أبو داود (٤/١١٣) وغيره من حديث أنس رضي الله عنه.

(١٠) صحيح مسلم (٣/١٥١٩).

(١١) صحيح البخاري (٦/١٥١)، وصحيح مسلم (٤/١٩٧٢).

وهاجت ريح في غزاته، فقال: «هاجت لموت منافق»، فلما رجعوا إلى المدينة وجدوا ذلك^(١).

وأعلم بالذي غل خرزًا من خرز يهود، فوجدت في رحله^(٢)، وبالذي غل الشملة وحيث هي^(٣)، وبشأن كتاب حاطبٍ إلى أهل مكة^(٤).

وأخبر بالمال الذي تركه عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند أم الفضل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد أن كتبه، فقال: «ما علمه غيري وغيرها» فأسلم^(٥).

وفي عتبة بن أبي لهب أنه يأكله كلب الله، وعن مصارع أهل بدر^(٦)، فكان كما قال.

وقال في الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن ابني هذا سيّدٌ وسيصلح الله به بين فئتين»^(٧)، ولسعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لعلك تُخلفُ حتى ينتفع بك أقوامٌ ويستضرّ بك آخرون»^(٨).

وأخبر بقتل أهل مؤتة يوم قتلوا وبينهم مسيرة شهرٍ أو أزيد^(٩)، وبموت النجاشي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم مات وهو بأرضه^(١٠).

(١) صحيح مسلم (٤/٢١٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/٦٨)، والنسائي (٤/٦٤)، وابن ماجه (٢/٩٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٥/١٣٨)، وصحيح مسلم (١/١٠٧).

(٤) صحيح البخاري (٤/٥٩)، وصحيح مسلم (٤/١٩٤١).

(٥) أخرجه أحمد (٥/٣٣٥)، والحاكم في المستدرک (٣/٣٦٦).

(٦) صحيح مسلم (٣/١٤٠٣).

(٧) صحيح البخاري (٣/١٨٦).

(٨) صحيح البخاري (٢/٨١)، وصحيح مسلم (٣/١٢٥٠).

(٩) صحيح البخاري (٥/٢٧).

(١٠) صحيح البخاري (٢/٧٢)، وصحيح مسلم (٢/٢٥٧).

وأخبر فيروز رَحِمَهُ اللَّهُ إذ ورد عليه رسولاً من كسرى بموت كسرى ذلك اليوم فلما حقق فيروز القصة أسلم ^(١).

وأخبر أن أسرع أزواجه به لحوقاً أطولهن يداً، فكانت زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لطول يدها بالصدقة ^(٢).

وأخبر بقتل الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالطف ^(٣)، وأخرج بيده تربة وقال: «فيها مضجعه» ^(٤).

وقال في الذين كانوا معه على حراء: «اثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيد»، فقتل عليّ وعمر وعثمان وطلحة والزبير وطعن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ^(٥).

وقال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان دعواهما واحدة» ^(٦).

إلى ما أخبر به جلساءه من أسرارهم وبواطنهم واطلع عليه من أسرار المنافقين وكفرهم وقولهم فيه وفي المؤمنين.

وإعلامه بصفة السحر الذي سحره به لبيد بن الأعصم وكونه في مشط ومشاطة في جُفٍّ ^(٧) طلع نخلة ذكرٍ وأنه ألقى في بئر ذروان ^(٨)، فكان كما قال، ووُجدَ على تلك الصفة.

(١) أخرجه أحمد (٨٥/٣٤)، والبخاري (١٠٦/٩).

(٢) صحيح البخاري (١١٠/٢)، وصحيح مسلم (١٩٠٧/٤).

(٣) والطف ما أشرف من أرض العرب على ريف العراق. الجمهرة (١٤٩/١).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧/٣) والأوسط (٢٤٩/٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٢١١/٤)، والترمذي (٦٥١/٥)، وابن ماجه (٤٨/١).

(٦) صحيح البخاري (٢٠٠/٤)، وصحيح مسلم (٢٢١٤/٤).

(٧) الجف (وكذا الجب) وعاء طلع النخل وهو الغشاء الذي يكون عليه.

(٨) صحيح البخاري (١٣٦/٧)، وصحيح مسلم (١٧١٩/٤).

إلى ما أخبر به من الحوادث التي تكون ولم تأت بعد منها، فظهرت مقدماتها كقوله: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية»^(١)، ومن أشراط الساعة وآيات حلولها وذكر النشْر والحشر وأخبار الأبرار والفجار والجنة والنار وعرصات القيامة، وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشمل على أجزاءٍ وحده، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التي ذكرناها كفايةً وأكثرها في الصحيح وعند الأئمة.



(١) أخرجه أبو داود (٤/ ١١٠)، وأحمد (٣٦/ ٣٥٢).

فصل في عصمة الله تعالى له ﷺ من الناس وكفايته من آذاه

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، قيل: بكافٍ محمداً ﷺ أعداءه المشركين، وقيل غير هذا، وقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، وقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيرِينَ﴾.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي ﷺ يُجْرَسُ حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني ربي عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

[و عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه غزا مع رسول الله ﷺ قَبْلَ نَجْدٍ، فلما قَتَلَ رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العِصَاهِ، فنزل رسول الله ﷺ وتفرَّق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت سَمَرَةٍ وعلق بها سيفه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله ﷺ يدعوننا، وإذا عنده أعرابيٌّ، فقال: «إن هذا اختلط علي سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلياً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله، -ثلاثاً-»، ولم يعاقبه وجلس^(٢)].

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١/٥)، والحاكم في المستدرک (٣٤٢/٢).

(٢) صحيح البخاري (٤/٣٩-٤٠)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٦).

ومنه حمايته عن رؤيتهم في الغار بما هياً الله له من الآيات ومن العنكبوت الذي نسج عليه، حتى قال أمية بن خلف حين قالوا: ندخل الغار: ما أربكم فيه؟ وعليه من نسج العنكبوت ما أرى أنه قبل أن يولد محمد، ووقفت حمامتان على فم الغار، فقالت قريش: لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام^(١).

وقصته مع سراقه بن مالك بن جُعشم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين الهجرة وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الجعائل، فَأُنْذِرَ به فركب فرسه وأتبعه، حتى إذا قَرَّبَ منه دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فساخت قوائم فرسه فخرَّ عنها، واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لا يلتفت وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يلتفت، وقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُتِينَا، فقال: «لا تحزن إن الله معنا»، فساخت ثانية إلى ركبتهَا وخرَّ عنها، فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان، فناداهم بالأمان، فكتب له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أماناً، كتبه ابن فهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقيل: أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأخبرهم بالأخبار، وأمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا يترك أحداً يلحق بهم، فانصرف يقول للناس: كُفَيْتُمْ ما ههنا، وقيل: بل قال لهما: أراكما دعوتما عليَّ فادعوا لي فنجا ووقع في نفسه ظهور النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق في قصته إذ خرج إلى [بني النضير]^(٣) في أصحابه فجلس إلى جدار بعض آطامهم فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٥/ ٣٨٤-٣٩٥)، وأحمد (٥/ ٣٠١).

(٢) صحيح البخاري (٥/ ٦٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٩٢).

(٣) في الشفا: «بني قريظة»، والتصويب من سيرة ابن هشام.

وذكر أهل التفسير معنى الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن أبا جهل وعد قريشاً: لئن رأى محمداً يصلي ليَطَأَنَّ رقبته، فلما صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلموه فأقبل، فلما قَرُبَ منه ولَّى هارباً ناكصاً على عقبيه مُتَقِيّاً يديه، فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء ناراً كدت أهوي فيه وأبصرت هولاً عظيماً وَخَفَقَ أَجْنَحَةُ قَدِ مَلَأَتْ الْأَرْضَ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تلك الملائكة لو دنا لا اختطفته عضواً عضواً». ثم أنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾^(١) أَن رَّاهُ اسْتَعْجَى^(٢) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ^(٣) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ^(٤) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ^(٥) لَيُعَذِّبْهُ^(٦) أَن رَّاهُ اسْتَعْجَىٰ^(٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ^(٨) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ^(٩) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ^(١٠) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ^(١١) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ

(٢) بحر العلوم (٣ / ٤٢٤).

اللَّهُ يَرَى ۞ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْصَحْنَا بِالنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۞ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۞ (١٧)
سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ ۞ (١٨) كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١﴾ .

ومن عصمته تعالى له أن كثيرًا من اليهود والكهنة أُنذروا به وعيَّنوه
لقريش وأخبروهم بسطوته بهم وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى حتى
بلغ فيه أمره.

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢).



(١) صحيح مسلم (٤/ ٢١٥٤).

(٢) صحيح البخاري (١/ ٧٤)، وصحيح مسلم (١/ ٣٧٠).

البَابُ الْخَامِسُ

في فرض الإيمان
به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ووجوب طاعته
واتباع سنته

الباب الخامس

في فرض الإيمان به ﷺ ووجوب طاعته واتباع سنته

إذا تقرر بها قدمناه ثبوت نبوته وصحة رسالته وجب الإيمان به وتصديقه فيما أتى به.

قال الله تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنَّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقال: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، فالإيمان بالنبي محمد ﷺ واجب متعين لا يتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» (١).

والإيمان به ﷺ هو تصديق نبوته ورسالة الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان بأنه رسول الله ﷺ، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة

(١) صحيح البخاري (٤/٤٨)، وصحيح مسلم (١/٥٢).

بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق له، كما ورد في هذا الحديث نفسه من رواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»^(١).

وقد زاده وضوحاً في حديث جبريل إذ قال: أخبرني عن الإسلام فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، وذكر أركان الإسلام ثم سأله عن الإيمان فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله..» الحديث^(٢)، فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان، والإسلام به مضطّر إلى النطق باللسان، وهذه هي الحالة المحمودة.

وأما الحال المذمومة فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، أي: كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لا يعتقدونه، فلما لم تصدق ذلك ضيأهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فخرجوا عن اسم الإيمان ولم يكن لهم في الآخرة حكمه؛ إذ لم يكن معهم إيمان، ولحقوا بالكافرين في الدرك الأسفل من النار، وبقي عليهم حكم الإسلام بإظهار شهادة اللسان في أحكام الدنيا المتعلقة بالأئمة وحكام المسلمين الذين أحكامهم على الظواهر بما أظهوره من علامة الإسلام، إذ لم يُجعل للبشر

(١) صحيح البخاري (١/١٤)، وصحيح مسلم (١/٥٣).

(٢) صحيح مسلم (١/٣٦).

سبيل إلى السرائر، ولا أمروا بالبحث عنها، بل نهى النبي ﷺ عن التحكم عليها^(١) وذم ذلك، وقال: «هلا شققت عن قلبه؟»^(٢).
والفرق بين القول والعقد ما جعل في حديث جبريل الشهادة من الإسلام والتصديق من الإيمان.



(١) أي: الحكم عليها دون دليل.

(٢) صحيح مسلم (٩٦/١).

فصل في وجوب طاعته ﷺ

وأما وجوب طاعته ﷺ فإذا وجب الإيمان به وتصديقه فيما جاء به وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به. قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾، وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ مِنْ رَسُولٍ فَخُذُوهُ وَمَنْ نَهَكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، فجعل تعالى طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره واجتناب نهيه.

قال المفسرون والأئمة: طاعة الرسول في التزام سنته والتسليم لما جاء به، وقالوا: ما أرسل الله من رسول إلا فرض طاعته على من أرسله إليه، وقالوا: من يطع الرسول في سنته يطع الله في فرائضه.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١﴾، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ ﴿٢﴾، أي ينقادوا لحكمك، يقال: سلّم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ﴿٣﴾، قال محمد بن عليّ الترمذي ^(١): الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنّته وترك مخالفته في قول أو فعل.

فأمرهم الله تعالى بذلك ووعدهم الاهتداء باتباعه؛ لأنه تعالى أرسله بالهدى ودين الحق ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم إلى صراط مستقيم، ووعدهم محبته تعالى في الآية الأخرى ومغفرته إذا اتبعوه وآثروه على أهوائهم وما تجنح إليه نفوسهم، وأن صِحَّةَ إيمانهم بانقيادهم له ورضاهم بحكمه وترك الاعتراض عليه.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني» ^(٢).

فطاعة الرسول من طاعة الله؛ إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به وطاعة له.

(١) هو أبو عبد الله الحكيم الترمذي.

(٢) صحيح البخاري (٦١/٩)، وصحيح مسلم (١٤٦٦/٣).

وقد حكى الله عن الكفار في دركات جهنم ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾، فتمنّوا طاعته حيث لا ينفعهم التمني.

وقال ﷺ: «إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(١).

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله ومن أبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»^(٢).

وفي الحديث الآخر الصحيح عنه ﷺ قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِينِي وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ فَالْنَجَاءُ، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاكَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»^(٣).

وفي الحديث الآخر في مثله: «كَمَثَلِ مَنْ بَنَى دَارًا وَجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَمَنْ لَمْ يَجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، فَالدَّارُ الْجَنَّةُ وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ

(١) صحيح البخاري (٩٤/٩)، وصحيح مسلم (٤/١٨٣٠).

(٢) صحيح البخاري (٩٢/٩).

(٣) صحيح البخاري (٩٣/٩)، وصحيح مسلم (٤/١٧٨٨).

ﷺ، فمن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمدٌ فَرَقَ بين الناس»^(١).

وروي عن الحسن أن أقواماً قالوا: يا رسول الله، إنا نحب الله فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢).

وقال القائل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ؟ هذا لعمرى في القياس بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع^(٣)

عن العرباض بن سارية في حديثه في موعظة النبي ﷺ أنه قال: «فعلیکم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة»^(٤).

زاد في حديث جابر بمعناه: «وكل ضلالة في النار»^(٥).

وفي حديث أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَا أُفِينَ أَحَدَكُمْ مَتَكُنًّا عَلَى أَرِيكْتِهِ يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ»^(٦).

(١) صحيح البخاري (٩/٩٣).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي (ص ١٠٣).

(٣) البيتان من مقطوع الكامل، لمحمود الوراق من شعراء القرن الثالث.

(٤) أخرجه أبو داود (٤/٢٠٠)، وابن ماجه (١/١٥)، وأحمد (٣٧٣/٢٨).

(٥) أخرجه النسائي (٣/١٨٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٣/١٤٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٤/٢٠٠)، والترمذي (٥/٣٧)، وابن ماجه (١/٦).

وفي حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: صنع رسول الله ﷺ شيئاً ترخص فيه فتزّره عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله ثم قال: «ما بال قوم يتنزّهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدّهم له خشية»^(١).

قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَوْا وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

وقال ﷺ: «من اقتدى بي فهو مني ومن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها»^(٣).



(١) صحيح البخاري (٢٦/٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٧/٣٨).

(٣) صحيح البخاري (٩٢/٩)، وصحيح مسلم (٥٩٢/٢).

فصل فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته ﷺ والافتداء بهديه وسيرته

وقال ﷺ: «هلك المتنطعون»^(١).

قال عمر بن عبد العزيز: سنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سنناً الأخذ بها تصديق بكتاب الله واستعمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها فهو مهتدٍ ومن انتصر بها فهو منصور ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولَّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً^(٢).

وقال الحسن بن أبي الحسن: عملٌ قليل في سنة خير من عمل كثير في بدعة^(٣).

وقال ابن شهاب: بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة^(٤).

وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللعن أي اللغة، وقال: إن ناساً يجادلونكم -يعني بالقرآن- فخذوهم بالسنن، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله^(٥).

(١) صحيح مسلم (٥٥/٢٠).

(٢) أخرجه الخلال في السنة (١٢٧/٤)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٤٣٥/١) وغيرهم.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٢٩١/١١)، ومحمد بن نصر المروزي في السنة (ص ٣٠).

(٤) أخرجه الدارمي في السنن (٢٣٠/١)، وابن بطة في الإبانة (٣١٩/١).

(٥) الشريعة للأجري (٤٠٨/١)، والإبانة لابن بطة (٣٥١/١).

وفي خبره حين صلى بذى الحليفة ركعتين فقال: أصنع كما رأيته رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع ^(١).

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة ^(٢).

وقال أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عليكم بالسبيل والسنة؛ فإنه ما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه ففاضت عيناه من خشية ربه فيعذبه الله أبداً، وما على الأرض من عبد على السبيل والسنة ذكر الله في نفسه فاقشعر جلده من خشية الله إلا كان مثله كمثلي شجرة قد ييس ورقها فهي كذلك إذ أصابتها ريح شديدة فتحات عنها ورقها إلا حطَّ عنه خطاياها كما تحات عن الشجرة ورقها، فإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة وموافقة بدعة، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهاداً أو اقتصاداً أن يكون على منهاج الأنبياء وستتهم ^(٣).

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إلى عمر بحال بلده وكثرة لصوصه: هل يأخذهم بالظنَّة أو يحملهم على البينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إليه عمر خذهم بالبينة وما جرت عليه السنة فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله ^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٢/٢٠٢)، والطبري في تهذيب الآثار (١/٢٠٩).

(٢) سنن الدارمي (١/٢٩٦)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/١١٧٩).

(٣) الزهد لابن المبارك (٢/٢١)، مصنف ابن أبي شيبة (٧/٢٢٤)، الزهد لأبي داود (ص ١٨٣).

(٤) هو يحيى الغساني الذي ولي الموصل لعمر بن عبد العزيز.

وعن عطاء في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾،
أي: إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ^(١).

وقال الشافعي: ليس في سنة رسول الله ﷺ إلا اتباعها^(٢).

وقال عمر رضي الله عنه - ونظر إلى الحجر الأسود-: إنك حجر لا تنفع
ولا تضر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ثم قبله^(٣).

وقال أبو عثمان الحيري: من أَمَرَ السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق
بالحكمة، ومن أَمَرَ الهوى على نفسه نطق بالبدعة^(٤).

وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة؛ الاقتداء بالنبي ﷺ في
الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال.



(١) الشريعة للأجري (١/٤٢٢)، جامع بيان العلم لابن عبد البر (١/٧٦٥).

(٢) الشريعة للأجري (٣/١١٢٧)، الإبانة لابن بطة (٧/٢٤٠)، الاستذكار (٢/٥٢٩).

(٣) صحيح البخاري (٢/١٤٩)، وصحيح مسلم (٢/٩٢٥).

(٤) حلية الأولياء (١٠/٢٤٤)، الجامع لأخلاق الراوي للخطيب (١/١٤٥).

فصل

ومخالفة أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبديل سنته ضلال وبدعة متوعد من الله عليه بالخذلان والعذاب، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ فِي صِفَةِ أُمَّتِهِ، وَفِيهِ: «فَلْيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يَذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، فَأَنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ، أَلَا هَلُمَّ، فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: فَسُحْقًا فَسُحْقًا»^(١).

وروى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(٢)، وقال: «مَنْ أَدْخَلَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(٣).

وقال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، إِنِّي أَخْشَىٰ أَنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ^(٤).

(١) صحيح مسلم (١/٢١٨).

(٢) صحيح البخاري (٧/٢)، وصحيح مسلم (٢/١٠٢٠).

(٣) صحيح البخاري (٣/١٨٤)، وصحيح مسلم (٣/١٣٤٣).

(٤) صحيح البخاري (٤/٧٩)، وصحيح مسلم (٣/١٣٨١).



فِي لَزُومِ

مَحَبَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الباب السادس

في لزوم محبته ﷺ



قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، فكفى بهذا حُصًا وتنبيهًا ودلالةً وحُجَّةً على إلزام محبته ﷺ ووجوب فرضها وعِظَم خطرها واستحقاقه لها؛ إذ قرَّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسَّقههم بتمام الآية وأعلمهم أنهم من ضل ولم يهده الله.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يَقْذِفَ فِي النَّارِ»^(٢).

(١) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٦٧/١).

(٢) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٦٦/١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي التي بين جنبيّ»، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه»، فقال: عمر والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إليّ من نفسي التي بين جنبيّ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «الآن يا عمر»^(١).



(١) صحيح البخاري (٨/١٢٩).

فصل في ثواب محبته ﷺ

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «ما أعددت لها!» قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكنني أحب الله ورسوله قال: «أنت مع من أحببت»^(١).

وروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، لأنت أحب إليّ من أهلي ومالي، وإني لأذكرك فما أصبر حتى أجيء فأنظر إليك، وإني ذكرت موتي وموتك، فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾، فدعا به فقرأها عليه^(٢).



(١) صحيح البخاري (٤٠ / ٨)، وصحيح مسلم (٤ / ٢٠٣٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١ / ١٥٢)، والصغير (ص ٥٣).

فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي ﷺ وشوقهم له

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله» ^(١).

وعن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كان أحد أحب إليّ من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢).

وعن ابن إسحاق أن امرأة من الأنصار قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجها يوم أحد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ما فعل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قالوا: خيراً، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرنيه حتى أنظر إليه، فلما رآته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَل ^(٣).

ووقف ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على ابن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بعد قتله، فاستغفر له وقال: كنت والله ما علمتُ صَوَّامًا قَوَّامًا تحب الله ورسوله ^(٤).

(١) صحيح مسلم (٤/٢١٧٨).

(٢) صحيح مسلم (١/١١٢).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٩٩)، دلائل النبوة للبيهقي (٣/٣٠١).

(٤) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/١٢٠ الجزء المتمم)، وهو في صحيح مسلم (٤/١٩٧١) دون قوله «تحب الله ورسوله».

فصل في علامة محبته ﷺ

اعلم أن من أحب شيئاً أثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه وكان مدّعياً، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه.

وأولها: الاقتداء به واتباع أقواله وأفعاله وامتنال أوامره واجتناب نواهيه والتأدب بأدابه في عُسْرِهِ وَيُسْرِهِ وَمَنْشَطِهِ وَمَكْرَهِهِ، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وإيثار ما شرعه وحض عليه على هوى نفسه وموافقة شهوته، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

فمن اتصف بهذه الصفة فهو كامل المحبة لله ورسوله، ومن خالفها في بعض هذه الأمور فهو ناقص المحبة ولا يخرج عن اسمها.

ودليله قوله ﷺ للذي حذّه في الخمر فلعنه بعضهم وقال: ما أكثر ما يؤتّى به! فقال النبي ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله»^(١).

ومن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره له، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره.

(١) صحيح البخاري (٨/١٥٨).

ومنها كثرة شوقه إلى لقائه ﷺ، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه،
وفي حديث الأشعرين عند قدومهم المدينة أنهم كانوا يرتجزون:

غَدًا نَلْقَى الْأَحَبَّ مُحَمَّدًا وَصَحْبَهُ

ومنها محبته لمن أحب النبي ﷺ ومن هو بسببه من آل بيته
وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم وبُغض من أبغضهم
وسبهم.

وقد قال ﷺ في الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اللهم إني أُحِبُّهُمَا
فَأَحِبَّهُمَا»^(١).

وفي رواية في الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم إني أُحِبُّهُ فَأَحِبَّ مِنْ يُحِبُّهُ»^(٢).

وقال: «من أحبهما فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغضهما
فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله»^(٣).

وقال في فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنها بَضْعَةٌ مِنِّي، يُغْضِبُنِي مَا أَغْضَبَهَا»^(٤).

وقال لعائشة في أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أحبيه؛ فإني أحبه»^(٥).

وقال: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغضهم»^(٦).

(١) صحيح البخاري (٢٦/٥).

(٢) صحيح البخاري (١٥٩/٧)، وصحيح مسلم (١٨٨٢/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٦٠/١٣)، والحاكم في المستدرک (١٨٢/٣).

(٤) صحيح البخاري (٢١/٥)، وصحيح مسلم (١٩٠٣/٤).

(٥) أخرجه الترمذي (٦٧٧/٥)، وابن حبان في صحيحه (٥٣٤/١٥).

(٦) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٨٥/١).

فبالحقيقة من أحب شيئاً أحب كل شيء يحبه، وهذه سيرة السلف حتى في المباحات وشهوات النفس.

وقد قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتبع الدُّبَاء من حوالي القصعة: فما زلت أحب الدُّبَاء من يومئذ ^(١).

وهذا الحسن بن عليّ وعبد الله بن عباس وابن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أتوا أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وسألوها أن تصنع لهم طعاماً مما كان يُعَجِب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يلبس النعال السَّبْتِيَّة ويصبغ بالصُّفْرَةِ إذ رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعل نحو ذلك.

ومنها بُغِض من أبغض الله ورسوله ومعاداة من عاداه ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه واستثقاله كل أمر يخالف شريعته قال الله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، وهؤلاء أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قتلوا أحياءهم وقتلوا آباءهم وأبناءهم في مرضاته.

(١) صحيح البخاري (٦١/٣)، وصحيح مسلم (١٦١٥/٣).

وقال له عبد الله بن عبد الله بن أبي رَجُلٍ عَنْهُ: لو شئت لأتيتك برأسه يعني أباه^(١).

ومنها أن يحب القرآن الذي أتى ﷺ به وهدى به واهتدى وتخلق به. حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان خلقه القرآن»^(٢). وحبُّه للقرآن تلاوته والعملُ به وتفهمه ويجب سنته ويقف عند حدودها.

قال سهل بن عبد الله: علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب القرآن حب النبي ﷺ، وعلامة حب النبي ﷺ حب السنة، وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بُغض الدنيا، وعلامة بُغض الدنيا أن لا يدخر منها إلا زادًا وبلغَةً إلى الآخرة^(٣).

ومن علامات حبه للنبي ﷺ شفقتُه على أمته ونصحه لهم وسعيه في مصالحهم ورفع المضار عنهم، كما كان ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا.



(١) أخرجه البزار (٣٢٢/١٤)، والطبراني في الكبير (١٢٥/٢٣).

(٢) صحيح مسلم (٥١٢/١).

(٣) قوت القلوب لأبي طالب المكي (١٠٤/١).

فصل في معنى المحبة للنبي ﷺ وحقيقتها

اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ وكثرت عباراتهم في ذلك، وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال. فقال سفيان: المحبة اتباع الرسول ﷺ، كأنه التفت إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، وقال بعضهم: محبة الرسول ﷺ العزم على نصرته والذب عن سنته والانقياد لها وهيبة مخالفته، وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب يجب ما أحب ويكره ما كره^(١).



(١) انظر في ذلك كتابي أبي إسحاق الختلى وابن تيمية «المحبة لله»، و«قاعدة في المحبة».

فصل في وجوب مناصحته ﷺ

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُوثُ مَا يَنْفُقُونَ حَرْجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال أهل التفسير: إذا نصحوا لله ورسوله إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية.

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم»^(١).

قال أئمتنا: النصيحة لله ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم واجبة.

قال الإمام أبو سليمان البستي: النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة إرادة الخير للمنصوح له، وليس يمكن أن يعبر عنها بكلمة واحدة تحصرها، ومعناها في اللغة الإخلاص من قولهم نصحت العسل إذا خلصته من شمعته^(٢).

فنصيحة الله تعالى صفة الاعتقاد له بالوحدانية ووصفه بما هو أهله وتنزيهه عما لا يجوز عليه والرغبة في محابه والبعد من مساخطه والإخلاص في عبادته.

(١) صحيح مسلم (١/ ٧٤) بلفظ: «الدين النصيحة» دون تكرار.

(٢) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي البستي (٤/ ١٢٥-١٢٦).

والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه وتحسين تلاوته والتخضع عنده والتعظيم له وتفهمه والتفقه فيه والذَّبُّ عنه من تأويل الغالين وطعن الملحدين.

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه. قاله أبو سليمان^(١).

وقال أبو بكر: وموازرتَه ونصرته وحمايته حيًّا وميتًا، وإحياء سنته بالطلب والذَّبُّ عنها ونشرها، والتخلق بأخلاقه الكريمة وآدابه الجميلة^(٢).
وقال أبو إبراهيم إسحاق التُّجيبِيُّ: نصيحةُ رسول الله ﷺ التصديقُ بما جاء به والاعتصام بسنته ونشرها والحُصُّ عليها والدعوة إلى الله وإلى كتابه وإلى سنة رسوله.

وقال أبو بكرٍ الأجرِيُّ: نصيحة المسلمين له بعد وفاته التزام التوقير والإجلال وشدة المحبة له والمثابرة على تعلُّم سنته والتفقه في شريعته، ومحبة آل بيته وأصحابه، ومجانبة من رَغِبَ عن سنته وانحرف عنها وبُغِضه والتحذير منه، والشفقة على أمته والبحث عن تعرُّف أخلاقه وسيرِه وآدابه، والصبر على ذلك؛ فعلى ما ذكره تكون النصيحة إحدى ثمرات المحبة وعلامةً من علاماتها كما قدمناه.



(١) معالم السنن لأبي سليمان الخطابي البستي (١٢٦/٤).

(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٩١-٦٩٤).

البَابُ السَّابِعُ

في تعظيم أمره
ووجوب توقيره
وبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الباب السابع

في تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره ﷺ



قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝۸ لِّتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۝۹ ﴾، وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ ۝۱۰ ﴾، وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ، بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝۱۱ ﴾، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝۱۲ ﴾، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝۱۳ ﴾، وقال تعالى: ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۝۱۴ ﴾.

فأوجب تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تعزروه تُجِلُّوه، وقال المبرد: تعزروه تبالغوا في تعظيمه ^(١).

ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

قال سهل بن عبد الله: لا تقولوا قبل أن يقول، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه وأن يفتاتوا بشيء في ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمره ولا يسبقوه به.

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٠٦-٢٠٨).

ثم وعظهم وحذّره مخالفة ذلك فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. قال الماوردي: اتقوه يعني في التقدم^(١)، وقال السلمي: اتقوا الله في إهمال حقه وتضييع حرمة؛ إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم^(٢).

ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته، وقيل: كما ينادي بعضهم بعضاً باسمه. قال أبو محمد مكي: أي لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا له بالخطاب، ولا تنادوه باسمه نداءً بعضكم لبعض، ولكن عظموه ووقروه، ونادوه بأشرف ما يجب أن ينادى به: يا رسول الله، يا نبي الله^(٣).

وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ على أحد التأويلين. وقال غيره: لا تخاطبوه إلا مستفهمين، ثم خوفهم الله تعالى بحبط أعمالهم إن هم فعلوا ذلك وحذّره منه.

قيل: نزلت الآية في وفد بني تميم وقيل في غيرهم، أتوا النبي ﷺ فنادوه: يا محمد، يا محمد، اخرج إلينا! فذمهم الله تعالى بالجهل ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون^(٤).

وقيل: نزلت الآية الأولى في محاورة كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بين يدي النبي ﷺ واختلاف جرى بينهما حتى ارتفعت أصواتهما^(٥).

(١) تفسير الماوردي المسمى بالنكت والعيون (٥/٣٢٦).

(٢) تفسير السلمي المسمى بحقائق التفسير (٢/٢٦٠).

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (١١/٦٩٨٧).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٢/١٩٣)، والطبراني في الكبير (١٣/١١٣).

(٥) صحيح البخاري (٩/٩٧).

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه خطيب النبي ﷺ في منافرة بني تميم، وكان في أذنيه صمم فكان يرفع صوته، فلما نزلت هذه الآية أقام في منزله وخشي أن يكون حبط عمله ثم أتى النبي ﷺ، فقال: يا نبي الله لقد خشيت أن أكون هلكاً، نهانا الله أن نجهر بالقول، وأنا امرؤ جهر الصوت، فقال النبي ﷺ: «يا ثابت أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟»، فقتل يوم اليمامة ^(١).

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك بعدها إلا كأخي السرار، وأن عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدثه كأخي السرار ما كان يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٢).

وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾. قال بعض المفسرين: كانت اليهود تعرض بها للنبي ﷺ بالرُّعونة، فنهي المسلمون عن قولها قطعاً للذريعة ومنعاً للتشبه بهم في قولها لمشاركة اللفظة ^(٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٣٩/١١)، وابن حبان في صحيحه (١٢٦/١٦).

(٢) صحيح البخاري (٩٧/٩).

(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٣٨٤/١)، تفسير ابن عطية المسمى بالمرحور الوجيز (١٨٩/١).

فصل في عادة الصحابة رضي الله عنهم في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: وما كان أحد أحب إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلْتُ أن أصفه ما أطق؛ لأنني لم أكن أملأ عيني ^(١).

وروى أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنها على رؤوسهم الطير ^(٢).

وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه، ولا ييصق بَصَاقًا ولا يتنخم نُخامةً إلا تلقوها بأكفهم فدلکوا بها وجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّثون إليه النظر تعظيمًا له. فلما رجع إلى قريش قال: يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه ^(٣).

(١) صحيح مسلم (١/١١٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤/٣)، وأحمد (٣٩٤/٣٠).

(٣) صحيح البخاري (٣/١٩٣) في حديث طويل.

وفي رواية: إن رأيتُ ملكًا قطَّ يعظمه أصحابه ما يعظم محمدًا أصحابه، وقد رأيت قومًا لا يُسلمونه أبدًا^(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحَلَّاق يحلقه وأطاف به أصحابه، فما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل^(٢).
ومن هذا لما أذنت قريش لعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الطواف بالبيت حين وجَّهه النبي ﷺ إليهم في القضية أبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ^(٣).

وفي حديث قيلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: فلما رأيت رسول الله ﷺ جالسًا القُرُفُصَاء أُرْعِدْتُ من الفَرْق^(٤). وذلك هيبة له وتعظيمًا.
وفي حديث المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بابه بالأظافر^(٥).



(١) المصدر السابق.

(٢) صحيح مسلم (٤/١٨١٢).

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه أحمد (٣١/٢١٦-٢٢١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤/٢٦٢)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٤٠٢)، والترمذي في الشرائع (ص ٨٩).

(٥) أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث (ص ١٩)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٣٧١).

فصل في أن حرمة النبي ﷺ وتوقيره بعد موته لازم كما كان حال حياته

واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته، ومعاملة آله وعترته، وتعظيم أهل بيته وصحابته. قال أبو إبراهيم التجيبي: واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنه أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به.

وهذه كانت سيرة سلفنا الصالح وأئمتنا الماضين رضي الله عنهم.

وقال مالك -وقد سئل عن أيوب السخيتاني-: ما حدثكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه، قال: وحج حجتين، فكنت أرمقه ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي ﷺ بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ كتبت عنه ^(١).

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه. ف قيل له يوماً في ذلك، فقال: لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم علي ما ترون، ولقد كنت أرى محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي حتى نرحمه، ولقد

(١) التمهيد لابن عبد البر (١/ ٣٤٠).

كنت أرى جعفر بن محمد وكان كثير الدعاة والتبشُّم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال: إما مصلياً وإما صامتاً وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه وكان من العلماء والعُباد الذين يخشون الله عزَّ وجلَّ.

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم ^(١) يذكر النبي ﷺ، فيُنظر إلى لونه كأنه نَزف منه الدم وقد جف لسانه في فمه هيبَةً منه لرسول الله ﷺ، ولقد كنت آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع، ولقد رأيت الزهري وكان من أهنأ الناس وأقربهم، فإذا ذكر عنده النبي ﷺ فكأنه ما عرفك ولا عرفته، لقد كنت آتي صفوان بن سُليم وكان من المتعبدین المجتهدین، فإذا ذكر النبي ﷺ بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه. وروي عن قتادة أنه كان إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل ^(٢).

ولما كثر على مالك الناس قيل له: لو جعلت مستملياً يسمعهم، فقال: قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾، وحرَّمته حياً وميتاً سواءً ^(٣).

(١) عالم الديار المصرية ومفتيهم، من أكثر تلامذة الإمام مالك ملازمة له.

(٢) المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٨٢)، المحدث الفاضل (ص ٤٠٢)، حلية الأولياء (٢/ ٣٣٤).

(٣) ترتيب المدارك (٢/ ٢٦).

وكان ابن سيرين ربما يضحك، فإذا ذُكر عنده حديث النبي ﷺ خشع^(١).

وكان عبد الرحمن بن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت وقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله.



(١) الجامع لأخلاق الراوي (١/٤١٢).

فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته

عن عمرو بن ميمون قال: اختلفت إلى ابن مسعود رضي الله عنه سنة، فما سمعته يقول: «قال رسول الله ﷺ» إلا أنه حدث يوماً، فجرى على لسانه «قال رسول الله ﷺ»، ثم علاه كرب حتى رأيت العرق يتحدر عن جبهته، ثم قال: هكذا إن شاء الله أو فوق ذا أو ما دون ذا أو ما هو قريب من ذا^(١).
وفي رواية: فتربّد وجهه^(٢)، وفي رواية: وقد تغرّرت عيناه وانتفخت أوداجه^(٣).

وقال إبراهيم بن عبد الله بن قُريم الأنصاري قاضي المدينة: مرّ مالك بن أنس على أبي حازم وهو يحدث، فجازاه وقال: إني لم أجد موضعاً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم^(٤).
وقال مالك: جاء رجل إلى ابن المسيب فسأله عن حديث وهو مضطجع، فجلس وحديثه، فقال له الرجل: وددت أنك لم تتعنّ فقال: إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع^(٥).

(١) مسند عبد الله بن المبارك (ص ١٤٠)، مسند الطيالسي (١/٢٥٦)، المعجم الكبير (٩/١٢١).

(٢) سنن الدارمي (١/٣٢٥).

(٣) علل الدارقطني (١٣/٢٦٤).

(٤) سنن الترمذي (٦/٢٤٦)، الجامع لأخلاق الراوي (١/٤٠٨).

(٥) أمالي ابن سمعون (ص ١٦٠)، المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي (ص ٣٩٢).

وقال مصعب بن عبد الله: كان مالك بن أنس إذا حدث عن رسول الله ﷺ توضأ وتهيا ولبس ثيابه ثم يحدث. قال مصعب: فسئل عن ذلك فقال: إنه حديث رسول الله ﷺ^(١).

قال مُطَرِّف: كان إذا أتى الناس مالكا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا: المسائل خرج إليهم، وإن قالوا الحديث دخل مغتسله واغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ولبس ساجه^(٢) وتعمم ووضع على رأسه رداءه وتلقى له منصبة فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ^(٣).

قال ابن أبي أويس: فقليل لمالك في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا. قال: وكان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل، وقال: أحب أن أفهم حديث رسول الله ﷺ^(٤).

وقال ضرار بن مرة: كانوا يكرهون أن يُحدثوا على غير وضوء^(٥). ونحوه عن قتادة.

-
- (١) تعظيم قدر الصلاة (٢/٦٦٩)، حلية الأولياء (٦/٣١٨).
 - (٢) والساج الطيلسان الضخم الغليظ.
 - (٣) انظر: الديباج المذهب (١/١٠٩)، فتح المغيث (٣/٢٢١).
 - (٤) ينظر: تدريب الراوي (٢/٥٧٣)، قواعد التحديث (ص ٢٣٥).
 - (٥) جامع بيان العلم وفضله (٢/١٢١٧).

وكان الأعمش إذا حدث وهو على غير وضوء تيمم^(١).

وقال ابن مهديّ: مشيت يوماً مع مالك إلى العقيق، فسألته عن حديث فانتهرني وقال لي: كنت في عيني أجلاً من أن تسأل عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي^(٢).

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم فأمر بحبسه، فقليل له: إنه قاض، قال: القاضي أحق من أدب^(٣).



(١) المصدر السابق.

(٢) ترتيب المدارك (٢/ ٢٥).

(٣) انظر: بهجة المحافل (٢/ ٤٠٧).

فصل

ومن توقير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبرّه برّ آله وذُرّيته وأمّهات المؤمنين أزواجه كما حَضَّ عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسلّكه السلف الصالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُنشِدْكُمْ الله أهل بيتي» - ثلاثاً -، قلنا لزيد: مَنْ أهل بيته؟ قال: آل عليٍّ وآل جعفر وآل عَقِيل وآل العباس (١).

قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكانهم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه.

وعن عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: لما نزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ الآية - وذلك في بيت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - دعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجللهم بكساء وعليٍّ خلف ظهره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثم قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» (٢).

وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت آية المباهلة دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليّاً وحسناً وحسيناً وفاطمة وقال: «اللهم هؤلاء أهلي» (٣).

(١) صحيح مسلم (٨/١٨٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٣٥١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/٣٤٣).

(٣) صحيح مسلم (٤/١٨٧١).

وقال النبي ﷺ في عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(١).

وقال فيه: «لا يحببك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق»^(٢).

وكان يأخذ بيد أسامة بن زيد والحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ويقول: «اللهم إني أحبُّهما فأحبُّهما»^(٣).

وقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارقبوا محمداً في أهل بيته»^(٤).

وقال أيضاً: والذي نفسي بيده لقربة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي»^(٥).

وقال ﷺ: «أحب الله من أحب حسينا»^(٦).

وقال ﷺ: «من أهان قريشاً أهانه الله»^(٧).

وقال ﷺ: «قدموا قريشاً ولا تقدّموها»^(٨).

وقال ﷺ: «لا تؤذيني في عائشة»^(٩).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٥ / ١)، وأحمد (٧١ / ٢).

(٢) صحيح مسلم (٨٦ / ١).

(٣) صحيح البخاري (٢٤ / ٥).

(٤) صحيح البخاري (٢٠ / ٥).

(٥) صحيح البخاري (٢٠ / ٥)، وصحيح مسلم (١٣٨٠ / ٣).

(٦) أخرجه الترمذي (٦٥٨ / ٥)، وابن ماجه (٥١ / ١)، وأحمد (١٠٣ / ٢٩).

(٧) أخرجه أحمد (٥٠٧ / ١)، وابن حبان في صحيحه (١٦٦ / ١٤).

(٨) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٦٢٢ / ٢)، والبخاري (١١٢ / ٢).

(٩) صحيح البخاري (١٥٦ / ٣).

وعن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال: رأيت أبا بكر رضي الله عنه وجعل الحسن على عنقه وهو يقول:

بأبي شبيهه بالنبى ليس شبيهاً بعلي
وعلي رضي الله عنه يضحك^(١).

وروي عن عبد الله بن حسن بن حسين قال: أتيت عمر بن عبد العزيز في حاجة، فقال لي: إذا كان لك حاجة فأرسل إليّ أو اكتب؛ فإني أستحيي من الله أن يراك على بابي^(٢).

وعن الشعبي قال: صلى زيد بن ثابت على جنازة أمه ثم قُربَتْ له بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس، فأخذ بركابه فقال زيد: خلّ عنه يا ابن عمّ رسول الله، فقال: هكذا نفعل بالعلماء، فقَبَّل زيد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا^(٣).

ولما فرض عمر بن الخطاب لابنه عبد الله في ثلاثة آلاف ولأسماء بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة قال عبد الله لأبيه: لم فضّلته؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، فقال له: لأنّ زيداً كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيك، وأسماء أحبّ إليه منك، فأثرت حب رسول الله صلى الله عليه وسلم على حبي^(٤).



(١) صحيح البخاري (٢٦/٥).

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٢٢٢/٤٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٧/٥)، والحاكم في المستدرک (٤٨٤/٣).

(٤) أخرجه الترمذي (٦٧٥/٥)، وابن حبان في صحيحه (٥١٧/١٥).

فصل

ومن توقيره وبره ﷺ إعظام أمكنته ومعاهده وما لمسه ﷺ، وتوقير أصحابه وبرهم ومعرفة حقهم والافتداء بهم وحسن الشاء عليهم والاستغفار لهم والإمساك عما شجر بينهم ومعاداة من عاداهم والإضراب عن أخبار المؤرخين وجهلة الرواة وضلال الشيعة والمبتدعين القاذحة في أحد منهم، وأن يلتمس لهم فيما نقل عنهم من مثل ذلك فيما كان بينهم من الفتن أحسن التأويلات ويُخرج لهم أصوب المخارج؛ إذ هم أهل ذلك، ولا يُذكر أحد منهم بسوء ولا يغمص عليه أمر، بل تذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم ويسكت عما وراء ذلك.

كما قال ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»^(١).

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُغْفِرُهُمْ رِضْوَانُ اللَّهِ عَنْهُمْ وَرِضْوَانُهُ عَنْهُ وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

(١) أخرجه الخرائطي في مساوئ الأخلاق (ص ٣٥٠)، والطبراني في الكبير (١٠/١٩٨).

أَعْظِيمُ ﴿﴾، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، وقال تعالى: ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»^(١).

وقال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

وقال مالك بن أنس وغيره: من أبغض الصحابة وسبهم فليس له في فيء المسلمين حق، ونزع بآية الحشر ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقال: من غاظه أصحاب محمد فهو كافر، قال الله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

وقال عبد الله بن المبارك: خصلتان من كانتا فيه نجا: الصدق وحب أصحاب محمد ﷺ^(٣).

قال أيوب السخيتاني: من أحب أبا بكر فقد أقام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله، ومن

(١) أخرجه الترمذي (٦٠٩/٥)، وابن ماجه (٣٧/١)، وأحمد (٣٨/٣١٠).

(٢) صحيح البخاري (٨/٥)، وصحيح مسلم (٤/١٩٦٧).

(٣) الشريعة للأجري (٤/١٦٨٧)، الطيوريات للسلفي (٢/٣٣١).

أحب عليًّا فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ فقد برئ من النفاق، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا ويكون قلبه سليمًا^(١).

وقال رجل للمعاني بن عمران: أين عمر بن عبد العزيز من معاوية، فغضب وقال: لا يقاس بأصحاب النبي ﷺ أحد، معاوية صاحبه وصهره وكاتبه وأمينه على وحي الله^(٢).

قال مالك: هذا النبي مؤدب الخلق الذي هدانا الله به وجعله رحمة للعالمين يخرج في جوف الليل إلى البقيع، فيدعو لهم ويستغفر كالمودع لهم، وبذلك أمره الله وأمر النبي ﷺ بحبهم وموالاتهم ومعاداة من عاداهم. قال سهل بن عبد الله التستري: لم يؤمن بالرسول من لم يوقر أصحابه ولم يُعزَّ أوامره.

وروي عن صفية بنت نجدة قالت: كان لأبي مخذورة قصة في مقدّم رأسه إذا قعد وأرسلها أصابت الأرض، ف قيل له: ألا تحلقها، فقال: لم أكن بالذي أحلقها وقد مسها رسول الله ﷺ بيده^(٣).

(١) الورع للإمام أحمد (ص ٩٣)، الشريعة للأجري (٤/١٧٧٣).

(٢) الشريعة للأجري (٥/٢٤٦٦)، شرح أصول الاعتقاد للالكائي (٨/١٥٣١).

(٣) أخرجه البخاري، والطبراني في الكبير (٧/١٧٦)، والحاكم في المستدرک (٣/٥٨٩).

وفي الصحيح أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في المدينة: «من أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً»^(١).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من حلف على منبري كاذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).



(١) صحيح البخاري (٢٠ / ٣)، وصحيح مسلم (٩٩٤ / ٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٢٢١ / ٢)، وابن ماجه (٧٧٩ / ٢)، ومالك في الموطأ (١٠٥٢ / ٤).

البَابُ الثَّامِنُ

في حكم الصلاة
عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
والتسليم وفرض
ذلك وفضيلته



الباب الثامن في حكم الصلاة عليه ﷺ والتسليم وفرض ذلك وفضيلته

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه أن الله وملائكته يباركون على النبي، وقال المبرد: وأصل الصلاة الترحم، فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله.

وقد ورد في الحديث صفة صلاة الملائكة على من جلس ينتظر الصلاة: اللهم اغفر له اللهم ارحمه ^(١)، فهذا دعاء. وقال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء ^(٢).

وقد فرق النبي ﷺ في حديث تعليم الصلاة عليه بين لفظ الصلاة ولفظ البركة، فدل أنها بمعنىين.

وأما التسليم الذي أمر الله تعالى به عباده فقال القاضي أبو بكر ابن بكير ^(٣): نزلت هذه الآية على النبي ﷺ، فأمر الله أصحابه أن يسلموا

(١) صحيح مسلم (١/٤٥٩).

(٢) تفسير مجاهد (ص ٥٥٢)، تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣١٣٩).

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن بكير التميمي أبو بكر البغدادي، ولي القضاء، له «أحكام القرآن»، و«الرضاع»، و«مسائل الخلاف»، توفي سنة ٣٠٥ هـ، وله خمسون سنة. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون (٢/١٨٥).

عليه، وكذلك من بعدهم أمروا أن يسلموا على النبي ﷺ عند حضورهم قبره وعند ذكره.

وفي معنى السلام عليه ثلاثة وجوه:

أحدها: السلامة لك ومعك، ويكون السلام مصدرًا كاللذاذ واللذازة.

الثاني: أي السلام على حفظك ورعايتك متولٍّ له وكفيل به، ويكون هنا السلام اسم الله.

الثالث: أن السلام بمعنى المسالمة له والانقياد، كما قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.



فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ

اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء له على الوجوب وأجمعوا عليه.

وحكى أبو جعفر الطبري أن محمل الآية عنده على الذنب وادعى فيه الإجماع^(١)، ولعله فيما زاد على مرة، والواجب منه الذي يسقط به الحرج ومأثم ترك الفرض مرة، كالشهادة له بالنبوة وما عدا ذلك فمندوب مرغّب فيه من سنن الإسلام وشعار أهله.

قال القاضي أبو الحسن ابن القصار^(٢): المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان، وفرض عليه أن يأتي بها مرة من دهره مع القدرة على ذلك^(٣).

وقال القاضي أبو بكر ابن بكير: افترض الله على خلقه أن يصلوا على نبيه ويسلموا تسليماً ولم يجعل ذلك لوقت معلوم، فالواجب أن يُكثِرَ المرء منها ولا يَغْفُلَ عنها^(٤).

(١) تهذيب الآثار للطبري (ص ٢٤٢، الجزء المفقود، ط. دار المأمون، تحقيق: علي رضا).

(٢) هو علي بن عمر بن أحمد أبو الحسن، المعروف بابن القصار، قال القاضي عياض: «قال أبو ذر: هو أفقه من رأيت من المالكيين»، توفي سنة ٣٧٨ هـ. انظر: تاريخ بغداد (٣٩٦/١٣)، ترتيب المدارك (٧٠-٧١).

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطلال (١١٣/١٠). وانظر: التمهيد (١٦/١٩١).

(٤) نقله القسطلاني في المواهب اللدنية (٢/٦٥١) عن المؤلف.

وقال أصحاب الشافعي: الفرض منها الذي أمر الله تعالى به ورسوله
ﷺ هو في الصلاة، وقالوا: وأما في غيرها فلا خلاف أنها غير
واجبة^(١).



(١) انظر: المجموع شرح المذهب (٣/٤٦٧).

فصل في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ

ويرغب من ذلك في الصلاة كما قدّمناه، وذلك بعد التشهد وقبل الدعاء. عن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً يدعو في صلاته فلم يصلّ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَلَ هذا»، ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ليدعُ بعدُ بما شاء»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إذا أراد أحدكم أن يسأل الله شيئاً فليبدأ بمدحه والثناء عليه بما هو أهله، ثم يصلّ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ليسأل فإنه أجدر أن ينجح^(٢).

وقال ابن عطاء: للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات، فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار في السماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح، فأركانه حضور القلب والرقّة والاستكانة والخشوع وتعلّق القلب بالله وقطعه من الأسباب، وأجنحته الصدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصلاة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن مواطن الصلاة عليه عند ذكره وسماحه أو كتابه أو عند الأذان.

(١) أخرجه الترمذي (٥١٧/٥)، وأحمد (٣٦٣/٣٩)، وابن حبان في صحيحه (٢٩٠/٥).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٤٤١/١٠).

وقد قال ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذَكَرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ»^(١).
وكره ابن حبيب^(٢) ذكر النبي ﷺ عند الذبح، وكره سحنون
الصلاة عليه عند التعجب، وقال: لا يصلّي عليه إلا على طريق الاحتساب
وطلب الثواب^(٣).

وروى النسائي عن أوس بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ الأمر
بالإكثار من الصّلاة عليه يوم الجمعة^(٤).

ومن مواطن الصلاة والسلام دخول المسجد. قال أبو إسحاق ابن
شعبان^(٥): وينبغي لمن دخل المسجد أن يصلّي على النبي ﷺ وعلى
آله، ويترحم عليه ويبارك عليه وعلى آله ويسلّم تسليماً، ويقول: اللهم اغفر
لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك، وإذا خرج فعل مثل ذلك وجعل موضع
«رحمتك» «فضلك».

ومن مواطن الصلاة عليه أيضاً الصلاة على الجنائز، وذكر عن أبي أمانة
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها من السنة^(٦).

(١) أخرجه الترمذي (٥٥٠/٥)، وأحمد (٤٢١/١٢).

(٢) أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمى القرطبي، لقب بالفقيه الكبير وعالم الأندلس،
ولد سنة ١٧٠هـ، وتوفي سنة ٢٣٨هـ، من أهم مؤلفاته كتاب الواضحة. ينظر: تاريخ علماء
الأندلس لابن الفارض (٢١٢/١)، ترتيب المدارك للمؤلف (٣٠/٢).

(٣) انظر: مواهب الجليل في شرح مختصر الخليل للحطاب الرعيني (١٩/١).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٧٥/١)، والنسائي (٩١/٣)، وابن ماجه (٣٤٥/١).

(٥) هو محمد بن القاسم بن شعبان أبو إسحاق القرطبي. قال الفرغاني: «كان رأس الفقهاء المالكيين
بمصر في وقته وأحفظهم لمذهب مالك، مع التفنن في سائر العلوم من الخبر والتاريخ والأدب،
إلى التدين والورع». توفي سنة ٣٥٥هـ. انظر: ترتيب المدارك (٢٧٤-٢٧٥).

(٦) مصنف ابن أبي شيبة (٤٩٠/٢).

ومن مواطن الصلاة التي مضى عليها عمل الأمة ولم تنكرها: الصلاة على النبي ﷺ في الرسائل وما يكتب بعد البسملة، ولم يكن هذا في الصدر الأول وأُحْدِث عند ولاية بني هاشم^(١)، فمضى به عمل الناس في أقطار الأرض ومنهم من يختم به أيضاً الكتب.

ومن مواطن السلام على النبي ﷺ تشهد الصلاة. عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إذا صلى أحدكم فليقل: التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبدٍ صالحٍ في السماء والأرض»^(٢).

هذا أحد مواطن التسليم عليه، وسنته أول التشهد.

وقد روى مالك عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يقول ذلك إذا فرغ من تشهد وأراد أن يسلم^(٣).

واستحب مالك في المبسوط^(٤) أن يسلم بمثل ذلك قبل السلام. قال محمد بن مسلمة^(٥): أراد ما جاء عن عائشة وابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما كانا

(١) يقصد بني العباس من بني هاشم.

(٢) صحيح البخاري (١/١٦٦)، وصحيح مسلم (١/٣٠١).

(٣) الموطأ (ص ٩١).

(٤) للقاضي إسماعيل بن إسحاق الأزدي الجهمي، من حفدة الإمام حماد بن زيد، توفي سنة ٢٨٢هـ، والكتاب مفقود.

(٥) هو محمد بن مسلمة بن هشام أبو هشام المخزومي المدني الفقيه، قال ابن حبان: «يروي عن مالك... وكان ممن يتفقه على مذهب مالك ويتفرع على أصوله، ممن صنف وجمع»، انظر: الثقات (٥٥/٩)، تاريخ دمشق (٢٩٠/٥٥).

يقولان عند سلامهما: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم^(١).
واستحب أهل العلم أن ينوي الإنسان حين سلامه كل عبد صالح في السماء والأرض من الملائكة وبني آدم والجن.
قال مالك في المجموعة^(٢): وأحبّ للمأموم إذا سلّم إمامه أن يقول: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين السلام عليكم.



(١) انظر: معرفة السنن والآثار (٣/ ٦٠).

(٢) هو كتاب المجموعة على مذهب مالك وأصحابه للعلامة محمد بن إبراهيم بن عبدوس المالكي. قال ابن فرحون: «كان ثقة إماماً في الفقه صالحاً زاهداً ظاهر الخشوع ذا ورع وتواضع... وكان نظيراً لمحمد بن المواز، وألف كتاباً شريفاً سماه المجموعة على مذهب مالك وأصحابه، أعجلته المنية قبل تمامه»، توفي سنة ٢٦٠هـ. الديباج المذهب (٢/ ٢٧٤).

فصل في كيفية الصلاة عليه ﷺ والتسليم

عن عمرو بن سُليم الزُّرْقِيّ أنه قال: أخبرني أبو حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»^(١).

وفي رواية أبي مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»^(٢).

وفي رواية كعب بن عُجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٣).

وعن عقبة بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديثه: «اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد»^(٤).

(١) صحيح البخاري (١٤٦/٤)، وصحيح مسلم (٣٠٦/١).

(٢) صحيح مسلم (٣٠٥/١).

(٣) صحيح البخاري (١٤٦/٤)، وصحيح مسلم (٣٠٥/١).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٥٨/١)، وأحمد (٣٠٤/٢٨).

وفي رواية زيد بن خارجة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف نصلي عليك؟ فقال: «صلوا واجتهدوا في الدعاء ثم قولوا: اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١).

وعن طاوس عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يقول: اللهم تقبل شفاعتي محمد الكبرى وارفع درجته العليا وآته سؤله في الآخرة والأولى كما آتيت إبراهيم وموسى^(٢).

وقوله: «والسلام كما قد علّمْتُم» هو ما علمهم في التشهد من قوله «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

وقد ذهب أبو عمر ابن عبد البر وغيره إلى أنه لا يُدعى للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحمة، وإنما يدعى له بالصلاة والبركة التي تختص به ويدعى لغيره بالرحمة والمغفرة^(٣).



(١) أخرجه أحمد (٢٣٩/٣)، والنسائي في الكبرى (١٤١/٩).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢١١/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٩٠٠/٢).

(٣) الاستذكار (٣٢٤/٢)، التمهيد (٣٠٤/١٧).

فصل في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ والتسليم عليه والدعاء له

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، وصلُّوا عليَّ؛ فإنه من صلَّى عليَّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً، ثم سلُّوا لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»^(١).

وروى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «من صلَّى عليَّ صلاةً صلى الله عليه عشر صلوات وحط عنه عشر خطيئات ورفعه له عشر درجات»^(٢). وفي رواية: «وكتب له عشر حسنات»^(٣).

ومن رواية عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لقيت جبريل فقال لي: إني أبشرك أن الله تعالى يقول: من سلم عليك سلمت عليه، ومن صلى عليك صليت عليه»^(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاةً»^(٥).

(١) صحيح مسلم (١/٢٨٨).

(٢) أخرجه النسائي (٣/٥٠)، وأحمد (٢١/٢٨٨)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٨٦).

(٣) عمل اليوم والليلة للنسائي (١/١٦٦)، ومسنَد الروياني (٢/١٦٠).

(٤) أخرجه أحمد (٣/٢٠٠)، والحاكم في المستدرک (١/٣٤٤).

(٥) أخرجه الترمذي (٢/٣٥٤)، وابن حبان في صحيحه (٣/١٩٢).

وعن عامر بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صَلَّى صلاة صَلَّتْ عليه الملائكة ما صلى عليَّ، فليُقِلَّ من ذلك عبد أو ليُكثِرْ»^(١).

وعن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ربع الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة جاء الموت بما فيه». فقال أبي بن كعب: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت»، قال: الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير»، قال: الثلث؟ قال: «ما شئت وإن زدت فهو خير»، قال: النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير»، قال: الثلثين؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير»، قال: يا رسول الله، فأجعل صلاتي كلها لك قال: «إِذَا تُكْفَى وَيَغْفِرُ ذَنْبَكَ»^(٢).



(١) أخرجه ابن ماجه (٢٩٤/١)، وأحمد (٤٥١/٢٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٣٦/٤)، وأحمد (١٦٦/٢٥).

فصل في ذم من لم يصل على النبي ﷺ وإثمه

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ رَمَضَانَ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يَغْضِرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْدهُ أَبْوَاهُ الْكِبَرِ فَلَمْ يَدْخُلْهُ الْجَنَّةَ». وفي لفظ: «أو أحدهما»^(١).

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «البخيل الذي ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يَصِلْ عَلَيَّ»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال أبو القاسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا ثُمَّ تَفَرَّقُوا قَبْلَ أَنْ يَذْكُرُوا اللَّهَ وَيَصِلُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ تِرَةٌ، إِنْ شَاءَ عَذِبُهُمْ وَإِنْ شَاءَ غُضِرَ لَهُمْ»^(٣).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَا يَجْلِسُ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَا يَصِلُونَ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ، وَإِنْ دَخَلُوا الْجَنَّةَ لَمَّا يَرُونَ مِنَ الثَّوَابِ»^(٤).



(١) أخرجه الترمذي (٥٥٠/٥)، وأحمد (٤٢١/١٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٥٥١/٥)، وأحمد (٢٥٨/٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣/٥)، وأحمد (٤٧٥/١٥).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في الصلاة (ص ٦٥)، والنسائي في الكبرى (٩/١٥٧).

فصل في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم من الأنام

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من أحد يسلم عليَّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»^(١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن لله ملائكةً سياحين في الأرض يُبلِّغوني عن أُمّتي السلام»^(٢).

وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «حيثما كنتم فصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبليغني»^(٣).

وفي حديث أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أكثرُوا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة؛ فإن صلاتكم معروضةٌ عليَّ»^(٤).



(١) أخرجه أبو داود (٢/٢١٨)، وأحمد (٤٧٧/١٦).

(٢) أخرجه النسائي (٤٣/٣)، وأحمد (١٨٣/٦).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في الصلاة على النبي (ص ٢٩)، والطبراني في الكبير (٨٢/٣).

(٤) أخرجه أبو داود (١/٢٧٥)، وابن ماجه (١/٣٤٥)، وأحمد (٨٤/٢٦).

فصل في الاختلاف في الصلاة على غير النبي ﷺ وسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

الذي ذهب إليه المحققون ما قاله مالك وسفيان رَحِمَهُمَا اللَّهُ وروي عن ابن عباس واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه لا يصلى على غير الأنبياء عند ذكرهم، بل هو شيء يختص به الأنبياء توقيرًا وتعزيرًا كما يُخَصُّ الله تعالى عند ذكره بالتنزيه والتقديس والتعظيم ولا يشاركه فيه غيره، كذلك يجب تخصيص النبي ﷺ وسائر الأنبياء بالصلاة والتسليم ولا يشارك فيه سواهم، كما أمر الله به بقوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، ويُذَكَّرُ من سواهم من الأئمة وغيرهم بالغفران والرضى كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَنِ﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾، وأيضًا فهو أمر لم يكن معروفًا في الصدر الأول كما قال أبو عمران، وإنما أحدثه الرافضة والمتشيعة في بعض الأئمة، فشاركوهم عند الذكر لهم بالصلاة وساوَوْهم بالنبي ﷺ في ذلك، وأيضًا فإن التشبُّه بأهل البدع منهى عنه فتجب مخالفتهم فيما التزموه من ذلك، وذكر الصلاة على الآل والأزواج مع النبي ﷺ بحكم التبع والإضافة إليه، لا على التخصيص.

وصلاة النبي ﷺ على من صلى عليه مجراها مجرى الدعاء
والمواجهة ليس فيها معنى التعظيم والتوقير. قالوا: وقد قال تعالى:
﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾، فذلك يجب أن
يكون الدعاء له مخالفاً لدعاء الناس بعضهم لبعض.



فصل فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب وفضله وفضل الصلاة فيه

قال الله تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾.

سُئِلَ النبي ﷺ: أَيُّ مسجد هو؟ قال: «مسجدي هذا»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى»^(٢).

وعن فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنت النبي ﷺ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْضُرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجْتَ فَصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْضُرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»^(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ قَالَ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٤).

(١) صحيح مسلم (١٠١٥/٢).

(٢) صحيح البخاري (٦٠/٢)، وصحيح مسلم (١٠١٤/٢).

(٣) أخرجه الترمذي (١٢٧/٢)، وابن ماجه (٢٥٣/١)، وأحمد (١٣/٤٤).

(٤) أخرجه أبو داود (١٢٧/١).

وقال مالك: سمع عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صوتاً في المسجد فدعا بصاحبه فقال: ممن أنت؟ قال: رجل من ثقيف، قال: لو كنت من هاتين القريتين لأدبتك؛ إن مسجدنا لا يرفع فيه الصوت^(١).

قال محمد بن مسلمة: لا ينبغي لأحد أن يعتمد المسجد برفع الصوت ولا بشيء من الأذى وأن ينزه عما يكره.

والعلماء كلهم متفقون أن حكم سائر المساجد هذا الحكم.

وقال مالك في المبسوط: لا بأس لمن قَدِمَ من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي ﷺ، فيصلي عليه ويدعو له ولأبي بكر وعمر، فقليل له: إن ناساً من أهل المدينة لا يَقْدَمُونَ من سفر ولا يريدونه، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة أو المراتين أو أكثر عند القبر، فيسَلِّمون ويدعون ساعة، فقال: لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا، وتركه واسع ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أَرَادَهُ. قال ابن القاسم: ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسَلَّمُوا، قال: وذلك رأيي.

وقال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعْبَد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وقال: «لا تجعلوا قبري عيداً»^(٢).

(١) صحيح البخاري (١/١٠١)، بمعناه.

(٢) نقل كل ذلك ابن الحاج في المدخل (١/٢٦٢).

البَابُ التَّاسِعُ

فيما يجب
للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وما يستحيل
في حقه أو
يجوز عليه وما
يُمْنَعُ أو يصح من
الأحوال البشرية
أن يضاف إليه

الباب التاسع

فيما يجب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يستحيل في حقه
أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصح من الأحوال
البشرية أن يضاف إليه



قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ
أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾. وقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ
الطَّعَامَ﴾. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحِدٌ﴾.

فمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر الأنبياء من البشر أُرسلوا إلى البشر، ولولا
ذلك لما أطاق الناس مقاومتهم والقبول عنهم ومخاطبتهم. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ
جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾، أي: لما كان إلا في صورة البشر الذين يمكنكم
مخالطتهم؛ إذ لا تطيقون مقاومة الملك ومخاطبته ورؤيته إذا كان على صورته.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُ فِي الْأَرْضِ مَلَكًا يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ
لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾، أي: لا يمكن في سنة الله
إرسال الملك إلا لمن هو من جنسه أو من خَصَّه الله تعالى واصطفاه وقوّاه

على مقاومته، كالأنبياء والرسل؛ فالأنبياء والرسل عليهم السّلام وسائط بين الله تعالى وبين خلقه، يبلغونهم أوامره ونواهيه ووعدده ووعيده ويعرّفونهم بما لم يعلموه من أمره وخلقه وجلاله وسلطانه وجبروته وملكوته، فظواهرهم وأجسادهم وبنيتهم متصفة بأوصاف البشر طارئ عليها ما يطرأ على البشر من الأعراض والأسقام والموت والفناء ونعوت الإنسانية، وأرواحهم وبواطنهم متعلّقة بالملاّ الأعلى متشبّهة بصفات الملائكة، سليمة من التغير والآفات لا يلحقها غالباً عجز البشرية ولا ضعف الإنسانية.



فصل فيما يختص بالأمور الدينية والكلام في عصمة نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

اعلم أن الطوارئ من التغيرات والآفات على آحاد البشر لا يخلو أن تطرأ على جسمه أو على حواسه بغير قصد واختيار كالأمراض والأسقام، أو تطرأ بقصد واختيار.

وجميع البشر تطرأ عليهم الآفات والتغيرات بالاختيار وبغير الاختيار في هذه الوجوه كلها، والنبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان من البشر ويجوز على جبلته ما يجوز على جبلته البشر فقد قامت البراهين القاطعة وتمت كلمة الإجماع على خروجه عنهم وتنزيهه عن كثير من الآفات التي تقع على الاختيار وعلى غير الاختيار كما سنبينه إن شاء الله تعالى.

أما عصمته قبل النبوة فللناس فيه خلاف، والصواب أنه معصوم قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكك في شيء من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار والآثار عن الأنبياء بتنزيههم عن هذه النقيصة منذ وُلِدُوا، ونشأتهم على التوحيد والإيمان، بل على إشراق أنوار المعارف ونفحات ألطاف السعادة، ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك، ومستند هذا الباب النقل، وقد استدل بعضهم بأن القلوب تنفر عن من كانت هذه سبيله.

وأنا أقول: إن قريشاً قد رمت نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل ما افترته، وعيّر كفّارُ الأمم أنبياءها بكل ما أمكنها واختلقته، مما نص الله تعالى عليه أو نقلته إلينا الرواة، ولم نجد في شيء من ذلك تعبيراً لواحد منهم برفضه آلهته وتقريعَه بدمه بترك ما كان قد جامعهم عليه، ولو كان هذا لكانوا بذلك مبادرين وبتلونه في معبوده محتجين، ولكان توبيخهم له بنهيهم عما كان يعبد قبلُ أقطع وأقطع في الحجة من توبيخه بنهيهم عن تركهم آلهتهم وما كان يعبد آبائهم من قبل؛ ففي إطباقهم على الإعراض عنه دليل على أنهم لم يجدوا سبيلاً إليه؛ إذ لو كان لنقل وما سكتوا عنه، كما لم يسكتوا عند تحويل القبلة وقالوا: ﴿مَا وَلَّهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ﴾، كما حكاه الله عنهم.

وقد استدلل القاضي القشيري على تنزيههم عن هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، قال: وطهره الله في الميثاق، وبعيد أن يأخذ منه الميثاق قبل خلقه ثم يأخذ ميثاق النبيين بالإيمان به ونصره قبل مولده بدهور ويجوز عليه الشرك أو غيره من الذنوب، هذا ما لا يجوزُه إلا مُلحد، هذا معنى كلامه، وكيف يكون ذلك وقد أتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَام وشق قلبه صغيراً واستخرج منه علقه وقال: هذا حظُّ الشيطان منك ثم غسله وملاه حكمة وإيماناً كما تظاهرت به أخبار المبدأ.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾؟ قلتُ معناه: لا تعرف الحقَّ فهداك إليه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلِكْتُبُ وَلَا أَلِيْمُنُ﴾؟ فالجواب أن السمرقندي قال: معناه ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان^(١). وقال بكر القاضي نحوه، قال: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، قال: فكان قبل مؤمناً بتوحيده ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدرها قبل، فزاد بالتكليف إيماناً.



(١) بحر العلوم (٣/ ٢٥٠).

فصل

واعلم أن الأمة مُجمعة على عصمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشَّيطان وكفائته منه.

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما منكم من أحد إلا وُكِّلَ به قرينه من الجنّ وقرينه من الملائكة»، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «وإيَّاي، ولكنَّ الله تعالى أعانني عليه فأسلم»^(١). زاد غيره عن منصور: «فلا يأمرني إلا بخير»^(٢).

روي «فأسلم» بضم الميم، أي: فأسلم أنا منه، وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها، وروي «فأسلم»، يعني القرين، أنه انتقل عن حال كفره إلى الإسلام، فصار لا يأمر إلا بخير كالمملك، وهو ظاهر الحديث، ورواه بعضهم «فاستسلم».

فإذا كان هذا حُكْمُ شيطانه وقرينه المسلَّط على بني آدم فكيف بمن بُعد منه ولم يلزم صحبته ولا أقدر على الدنوّ منه؟

وقد جاءت الآثار بتصدّي الشياطين له في غير موطن رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه وإدخال شغل عليه إذ يئسوا من إغوائه، فانقلبوا خاسرين كتمرُّضه له في صلاته فأخذه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأسرّه. ففي الصَّحاح قال أبو

(١) صحيح مسلم (٤/٢١٦٧، ٢١٦٨).

(٢) المصدر السابق (٤/٢١٦٧).

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ عَرَضَ لِي فَشَدَّ عَلَيَّ يَقْطَعُ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْهُ فَذَعَعْتُهُ^(١)، ولقد هممتُ أَنْ أُوثِقَهُ إِلَى سَارِيَةِ حَتَّى تَصْبَحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سَلِيمَانَ ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾، فَردّه اللَّهُ خَاسئًا»^(٢).

ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته تسبّب بالتوسط إلى عداه كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتصوّره في صورة الشيخ النجدي^(٣)، ومرة أخرى في غزوة يوم بدر في صورة سراقه بن مالك^(٤)، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ومرة يُنذِر بشأنه عند بيعة العقبة^(٥)، ومع كل هذا فقد كفاه الله أمره وعصمه من ضرّه وشرّه.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين لدّ في مرضه وقيل له: خشينا أن يكون بك ذاتُ الجنب فقال: «إِنَّهَا مِنَ الشَّيْطَانِ وَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُسَلِّطَهُ عَلَيَّ»^(٦).

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا وَادٍ بِهِ شَيْطَانٌ» فليس فيه ذكر تسلّطه عليه ولا وسوسته له، بل إن كان بمقتضى ظاهره فقد بيّن أمر ذلك الشيطان

(١) أي: خنقته.

(٢) صحيح البخاري (٦٤/٢).

(٣) الطبقات لابن سعد (١٧٦/١).

(٤) سيرة ابن إسحاق (٣٠٥/١)، وسيرة ابن هشام (٦١٢/١).

(٥) مسند أحمد (٩٤/٢٥)، والمعجم الكبير للطبراني (٩٠/١٩).

(٦) أخرجه أحمد (٣٦٦/٤٣)، والحاكم في المستدرک (٤٤٩/٤).

بقوله: «إن الشيطان أتى بلالاً فلم يزل يُهدّئه كما يُهدّئ الصبيّ حتى نام»^(١)، فاعلم أن تسلّط الشيطان في ذلك الوادي إنّما كان على بلال الموكّل بكلاءة الفجر، هذا إن جعلنا قوله: «إن هذا وادٍ به شيطان» تنبيهاً على سبب النوم عن الصلاة، وأما إن جعلناه تنبيهاً على سبب الرحيل عن الوادي وعلةً لترك الصلاة به وهو دليلٌ مساق الحديث فلا اعتراض به في هذا الباب.



(١) موطأ مالك (٢/ ٢٠ ت: الأعظمي)، من مرسل زيد بن أسلم.

فصل في أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم في أقواله وأفعاله فيما طريقه البلاغ

وأما أقواله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قامت الدلائل الواضحة بصحة المعجزة على صدقه وأجمعت الأمة فيما كان طريقه البلاغ أنه معصوم فيه من الإخبار عن شيء منها بخلاف ما هو به لا قصداً ولا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً.

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «قلت: يا رسول الله، أكتب كل ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: في الرضى والغضب؟ قال: «نعم»، فإني لا أقول في ذلك كله إلا حقاً» (١).

فإذا قامت المعجزة على صدقه وأنه لا يقول إلا حقاً ولا يبلّغ عن الله إلا صدقاً وأن المعجزة قائمة مقام قول الله له: صدقت فيما تذكره عني وهو يقول: إني رسول الله إليكم لأبلغكم ما أرسلت به إليكم وأبين لكم ما نزل عليكم وقال تعالى عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وقال: ﴿وَمَا ءَانَكُمْ الرَّسُولُ فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ فلا يصح أن يوجد منه في هذا الباب خبر بخلاف خبره على أي وجه كان، فلو جوزنا عليه الغلط والسهو لما تميز لنا من غيره ولا اختلط الحق بالباطل، فالمعجزة مشتملة على تصديقه جملة واحدة من غير خصوص، فتتزيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك كله واجب برهاناً وإجماعاً.

(١) أخرجه أبو داود (٣/٣١٨)، وأحمد (٥٨/١١).

فصل في أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم في أقواله وأفعاله فيما ليس طريقه البلاغ كذلك

أمّا ما ليس سبيله سبيل البلاغ من الأخبار التي لا مستند لها إلى الأحكام ولا أخبار المعاد ولا تُضاف إلى وحي بل في أمور الدنيا وأحوال نفسه فالذي يجب تنزيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن يَقَعَ خبره في شيء من ذلك بخلاف خبره لا عمداً ولا سهواً ولا غلطاً، وأنه معصوم من ذلك في حال رضاه وفي حال سخطه وجده ومزحه وصحته ومرضه.

ودليل ذلك اتفاق السلف وإجماعهم عليه، وذلك أنا نعلم من دين الصحابة وعاداتهم مُبادرتهم إلى تصديق جميع أحواله والثقة بجميع أخباره في أي باب كانت وعن أي شيء وقعت، وأنه لم يكن لهم توقف ولا تردّد في شيء منها، ولا استثبات عن حاله عند ذلك هل وقع فيها سهو أم لا.

ولما احتجّ ابن أبي الحقيق اليهودي على عمر حين أجلاه من خيبر بإقرار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم واحتجّ عليه عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كيف بك إذا أخرجت من خيبر؟»، فقال اليهودي: كانت هزيمة^(١) من أبي القاسم، فقال له عمر: كذبت يا عدوّ الله^(٢).

وأيضاً فإن أخباره وآثاره وسيره وشأله معتنى بها مستقصى تفاصيلها، ولم يرد في شيء منها استدراكه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لغلط في قول قاله أو اعترافه بوهم

(١) تصغير هزل، وهو ضد الجد.

(٢) صحيح البخاري (١٩٢/٣).

في شيءٍ أخبر به، ولو كان ذلك لنقل كما نقل من قصّته عَلَيْهِ السَّلَامُ رجوعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما أشار به على الأنصار في تلقيح النخل، وكان ذلك رأيًا لا خبرًا، وغير ذلك من الأمور التي ليست من هذا الباب كقوله: «والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا فعلت الذي حلفت عليه وكفرت عن يميني»^(١). وقوله: «إنكم تختصمون إلي»^(٢) - الحديث -، وقوله: «اسقي يا زبير حتى يبلغ الماء الجذر»^(٣).



(١) صحيح البخاري (١٢٧/٨) وصحيح مسلم (١٢٦٨/٣).

(٢) المصدران السابقان (١٨٠/٣)، (١٣٣٧/٣).

(٣) المصدران السابقان (١١١/٣)، (١٨٢٩/٤). والجذر بفتح الجيم وكسرها: الجدار.

فصل في المباحات من تصرفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وأما ما يتعلق بالجوارح من الأعمال ولا يخرج من جملتها القول باللسان فيما عدا الخبر الذي وقع فيه الكلام ولا الاعتقاد بالقلب فيما عدا التوحيد وما قدّمناه من معارفه المختصة به فأجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات.

وكذلك لا خلاف أنّهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ؛ لأن كلّ ذلك يقتضي العصمة منه المعجزة مع الإجماع على ذلك من الكافة.

وقد عُلِمَ من دين الصحابة قطعاً الاقتداء بأفعال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف توجّهت وفي كلّ فنٍّ، كالاقتداء بأمواله، فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه، وخلعوا نعالهم حين خلع، واحتجاجهم برؤية ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إياه جالساً لقضاء حاجته مستقبلاً بيت المقدس، واحتجّ غير واحد منهم في غير شيء ممّا بابّه العبادة أو العادة بقوله: رأيت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعلُه. وقال: «هلا خبرتها أنّي أقبل وأنا صائم»^(١). وقالت عائشة محتجة: «كنت أفعله أنا ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وغضب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الذي أخبر بمثل هذا عنه فقال: يحل الله لرسوله ما يشاء. وقال: «إنّي لأخشاكم لله وأعلمكم بحدوده»^(٢).

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٤١٥/٣) وأحمد (٨٧/٣٩).

(٢) صحيح البخاري (٢/٧)، وصحيح مسلم (٧٧٩/٢).

والآثار في هذا أعظم من أن نُحيط بها، لكنّه يُعَلِّمُ من مجموعها على القطع اتّباعهم أفعاله واقتداؤهم بها، ولو جَوَّزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتَّسَقَ هذا ولتُقِلَّ عنهم وظهر بحثهم عن ذلك، ولما أنكر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الآخر قوله واعتذاره بما ذكرناه.

وأما المباحات فجائز وقوعها منهم؛ إذ ليس فيها قدح، بل هي مأذون فيها، وأيديهم كأيدي غيرهم مسلّطة عليها، إلّا أنّهم بما خصّوا به من رفيع المنزلة وشُرِّحتْ لهم صدورهم من أنوار المعرفة واضطُّفوا به من تعلُّقٍ بالهِمِّ بالله والدار الآخرة لا يأخذون من المباحات إلّا الضّرورات ممّا يتقوّن به على سلوك طريقهم وصلاح دينهم وضرورة دنياهم، وما أُخذَ على هذه السبيل صار قرينة، فبان لك عظيم فضل الله على نبيّنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى سائر أنبيائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بأن جعل أفعالهم قُرْبَاتٍ وطاعات بعيدة عن وجه المخالفة ورسم المعصية.



فصل : فيما يخصه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأمور الدنيوية وما يطرأ عليه من العوارض البشرية

قد قدّمنا أنّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر الأنبياء والرسل من البشر وأنّ جسمه وظاهره خالص للبشر يجوز عليه من الآفات والتغيرات والآلام والأسقام وتجرع كأس الحماّم ما يجوز على البشر، وهذا كله ليس بنقيصة فيه؛ لأنّ الشيء إنّما يسمّى ناقصاً بالإضافة إلى ما هو أتمّ منه وأكمل من نوعه، وقد كتب الله تعالى على أهل هذه الدار فيها يحيون وفيها يموتون ومنها يُخرجون، وخلق جميع البشر بمدرجة الغير، فقد مرّض صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشتكى وأصابه الحرّ والقرّ، وأدركه الجوع والعطش، ولحقه الغضب والضجر، وناله الإعياء والتعب، ومسه الضعف والكبر، وسقط فججش شقه، وشجّه الكفار وكسروا رباعيته، وسقي السّم وسُحر، وتداوى واحتجم، وتنشر وتعوذ، ثمّ قضى نَحْبَه فتوفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولحق بالرفيق الأعلى، وتخلّص من دار الامتحان والبلوى، وهذه سمات البشر التي لا محيص عنها.

وأصاب غيره من الأنبياء ما هو أعظم منه، فقتلوا قتلاً، ورُموا في النار، ونُشروا بالمنشير، ومنهم من وقاه الله ذلك في بعض الأوقات، ومنهم من عصمه كما عصم بعد نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس، فلئن لم يكف نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربّه يد ابن قميّة يوم أُخذ ولا حجه عن عيون عداه عند دعوته أهل الطائف، فلقد أخذ على عيون قريش عند خروجه إلى ثور وأمسك عنه سيف غورث

وَحَجَرَ أَبِي جَهْلٍ وَفَرَسَ سُراقَةَ، وَلِئِنْ لَمْ يَقِهِ مِنْ سِحْرِ ابْنِ الْأَعصَمِ فَلَقَدْ وَقَاهُ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ سُمْ الْيَهُودِيَّةِ، وَهَكَذَا سَائرُ أَنْبيائه مَبْتَلًى وَمَعاقًى، وَذَلِكَ مِنْ تَمَامِ حِكْمَتِهِ لِيُظْهِرَ شَرَفَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ وَيُبَيِّنَ أَمْرَهُمْ وَيُتَمِّمَ كَلِمَتَهُ فِيهِمْ، وَلِيَحَقِّقَ بَامْتِحَانِهِمْ بَشَرِيَّتَهُمْ وَيَرْتَفِعَ الْإِلْتِبَاسُ عَنْ أَهْلِ الضَّعْفِ فِيهِمْ، لئَلَّا يَضِلُّوا بِمَا يَظْهَرُ مِنَ الْعَجَائِبِ عَلَى أَيْدِيهِمْ ضَلَالِ النَّصَارَى بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ، وَلِيَكُونَ فِي مُحَنِهِمْ تَسْلِيَةٌ لِأَمْثَلِهِمْ وَوَفُورٌ لِأَجْوَهِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ.

وهذه الطوارئ والتغيرات المذكورة إنما تختص بأجسامهم البشرية المقصود بها مقاومة البشر ومعاناة بني آدم لمشاكلة الجنس. وأما بواطنهم فمنزهة غالبًا عن ذلك معصومة منه متعلقة بالملا الأعلى والملائكة لأخذها عنهم وتلقيها الوحي منهم.

وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ عَيْنِي تَنَامَانُ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»^(١)، وقال: «إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي أَبِيتُ يَطْعَمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي»^(٢). فأخبر أن سره وباطنه وروحه خلاف جسمه وظاهره، وأن الآفات التي تحلّ ظاهره من ضعف وجوع وسهر ونوم لا يحلّ منها شيء باطنه بخلاف غيره من البشر في حكم الباطن؛ لأنّ غيره إذا نام استغرق النوم جسمه وقلبه وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نومه حاضر القلب كما هو في يقظته، حتّى قد جاء في بعض الآثار أنّه كان محروسًا من الحدث في نومه لكون قلبه يقظان كما ذكرناه.

(١) صحيح البخاري (٥٣/٢)، وصحيح مسلم (٥٠٩/١).

(٢) صحيح البخاري (٢٩/٣)، وصحيح مسلم (٧٧٦/٢).

وكذلك غيره إذا جاع ضَعُفَ لذلك جسمُه وخارت قوَّتُه فبطلت بالكلِّيَّة جملتُه، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أنَّه لا يعتريه ذلك وأنَّه بخلافهم لقوله: «إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربِّي ويسقيني». ولم يجر على باطنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الأحوال كلُّها من وَصَبٍ وَمَرَضٍ وَسِحْرِ وَغَضَبٍ ما يُحِلُّ به ولا فاض منه على لسانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجوارحه ما لا يليقُ به كما يعتري غيره من البشر.



فصل في الجواب عن كون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سحر

فإن قلت: فقد جاءت الأخبار الصحيحة أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سحر كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «سحر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إنه ليُخَيَّلَ إليه أنه فعل الشيء وما فعله»^(١). وفي رواية أخرى: «حتى كان يُخَيَّلُ إليه أنه كان يأتي النساء ولا يأتيهن».. الحديث^(٢). وإذا كان هذا من التباس الأمر على المسحور فكيف حال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، وكيف جاز عليه وهو معصوم؟ فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن هذا الحديث صحيح متفق عليه، وقد طعنت فيه الملحدة وتدرّعت به لسُخْفِ عقولها وتلبسها على أمثالها إلى التشكيك في الشرع، وقد نزه الله الشرع والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عما يدخل في أمره لبساً، وإنما السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا يُنكر ولا يَقْدَح في نبوته.

وأما ما ورد أنه كان يُخَيَّلُ إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله فليس في هذا ما يدخل عليه داخلة في شيء من تبليغه أو شريعته، أو يقْدَح في صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طروؤه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها ولا فضّل من أجلها، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر؛ فغير بعيد أن يُخَيَّلَ إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان.

(١) صحيح البخاري (١٣٦/٧)، وصحيح مسلم (١٧١٩/٤).

(٢) صحيح البخاري (١٣٧/٧).

وأيضاً فقد فسر هذا الفصل الحديث الآخر من قوله: «حتى يخيل إليه أنى يأتي أهله ولا يأتين»، وقد قال سفيان: هذا أشد ما يكون من السحر ولم يأت في خبر منها أنه نُقل عنه في ذلك قول بخلاف ما كان أخبر أنه فعله ولم يفعله، وإنما كانت خواطر وتخيلات.

وقد روى عبد الرزاق هذا الحديث عن ابن المسيب وعروة بن الزبير، وقال فيه عنهما: «سحر يهود بني زريق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعلوه في بئر حتى كاد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ينكر بصره، ثم دله الله على ما صنعوا فاستخرجه من البئر».

فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات أن السحر إنما تسلط على ظاهره وجوارحه لا على قلبه واعتقاده وعقله، وأنه إنما أثر في بصره وحسبه عن وطء نسائه وطعامه وأضعف جسمه وأمراضه. ويكون معنى قوله: «يخيل إليه أنه يأتي أهله ولا يأتين»، أي: يظهر له من نشاطه ومتقدم عاداته القدرة على النساء، فإذا دنا منهن أصابته أخذة السحر، فلم يقدر على إتيانهن كما يعترى من أخذ واعترض.

ولعله لمثل هذا أشار سفيان بقوله: «وهذا أشد ما يكون من السحر»، ويكون قول عائشة في الرواية الأخرى: «إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله» من باب ما اختل من بصره كما ذكر في الحديث، فيظن أنه رأى شخصاً من بعض أزواجه أو شاهد فعلاً من غيره ولم يكن، على ما يُخيل إليه لما أصابه في بصره وضعف نظره لا لشيء طرأ عليه في مَيزه، وإذا كان هذا لم يكن فيما ذكر من إصابة السحر له وتأثيره فيه ما يدخل لبساً، ولا يجد به الملحد المعترض أنساً.

فصل فيما يعتقده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه

وأما ما يعتقده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه وقضاياهم ومعرفة الحق من المبطل وعلم المصلح من المفسد، فهذه السبيل لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنُّ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مِمَّا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْءٌ فَلَا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»^(١). وفي رواية الزهري عن عروة: «فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغُ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبْ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِي لَهُ»^(٢).

وتجري أحكامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الظاهر وموجب غلبات الظن بشهادة الشاهد ويمين الحالف ومراعاة الأشبه ومعرفة العفاص^(٣) والوكاء مع مقتضى حكمة الله في ذلك؛ فإنه تعالى لو شاء لأطلععه على سرائر عبادته ومخبات ضمائر أمته، فتولَّى الحكمَ بينهم بمجرد يقينه وعلمه دون حاجة إلى اعتراف أو بينة أو يمين أو شبهة.

ولكن لما أمر الله أمته باتباعه والافتداء به في أفعاله وأحواله وقضاياه وسيره وكان هذا - لو كان - مما يختص بعلمه ويؤثره الله به لم يكن للأمم سبيل

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٨٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٧).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٧٣)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٧).

(٣) وعاء من جلد أو خرقة أو غير ذلك. المحكم لابن سيده (١/ ٤٤٩).

إلى الاقتداء به في شيء من ذلك، ولا قامت حجة بقضيّة من قضاياه لأحد في شريعته؛ لأنّا لا نعلم ما أطلع عليه هو في تلك القضية بحكمه بما أطلعه عليه من سرائرهم، وهذا ما لا تعلمه الأمة.

فأجرى الله تعالى أحكامه على ظواهرهم التي يستوي في ذلك هو وغيره من البشر ليتّم اقتداء أمّته به في تعيين قضاياه وتنزيل أحكامه ويأتوا ما أتوا من ذلك على علم ويقين من سنّته؛ إذ البيان بالفعل أوقع منه بالقول وأرفع لاحتمال اللَّفظ وتأويل المتأوّل، وكان حكمه على الظّاهر أجلى في البيان وأوضح في وجوه الأحكام وأكثر فائدة لموجبات التّشاجر والخصام، وليقتدي بذلك كله حكّام أمّته ويستوثق بما يؤثر عنه وينضبط قانون شريعته، وطئ ذلك عنه من علم الغيب الذي استأثر به عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فيعلمه منه بما شاء ويستأثر بما شاء، ولا يقدح هذا في نبوته ولا يفصم عروّة من عصمته.



فصل في الإجابة على بعض الشبه في ذلك

فإن قيل: فما وجه حديثه أيضاً الذي عن سالم مولى النّصرين قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتّخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأیما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»^(١). وفي رواية: «فأیما أحد دعوت عليه دعوة»^(٢)، وفي رواية: «ليس لها بأهل»^(٣)، وفي رواية: «فأیما رجلٍ من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاة وصلاة ورحمة»^(٤)، وكيف يصح أن يلعن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من لا يستحق اللعن ويسب من لا يستحق السب ويجلد من لا يستحق الجلد أو يفعل مثل ذلك عند الغضب وهو معصوم من هذا كله؟ فاعلم شرح الله صدرك أن قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً «ليس لها بأهل» أي: عندك يارب في باطن أمره؛ فإن حكمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الظاهر كما قال وللحكمة التي ذكرناها، فحكمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجلده أو أدبه بسببه أو لعنه بما اقتضاه عنده حال ظاهره، ثم دعا له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشفقته على أمته ورأفته ورحمته للمؤمنين التي وصفه الله بها وحذره أن يتقبل الله فيمن دعا عليه دعوته أن يجعل دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله: «ليس لها بأهل».

(١) صحيح مسلم (٢٠٠٨/٤)، وأخرجه البخاري (٧٧/٨) مختصراً.

(٢) صحيح مسلم (٢٠٠٩/٤).

(٣) صحيح مسلم (٢٠٠٩/٤).

(٤) صحيح مسلم (٢٠٠٧/٤).

لا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحمل الغضب ويستفزّه الضَّجَرُ لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مسلم، وهذا معنى صحيح.

ولا يفهم من قوله: «أغضب كما يغضب البشر» أنَّ الغضبَ حمله على ما لا يجب، بل يجوز أن يكون المراد بهذا أنَّ الغضب لله حمله على معاقبته بلعنه أو سبه وأنه ممَّا كان يحتمل ويجوز عفو عنه، أو كان ممَّا خُيِّر بين المعاقبة فيه والعفو عنه.

وقد يحمل على أنه خرج مخرج الإشفاق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدي حدود الله، وقد يُحمَل ما ورد من دعائه هنا ومن دعواته على غير واحد في غير موطن على غير العقد والقصد، بل بما جرَّت به عادة العرب وليس المراد بها الإجابة كقوله: «تَرَبَّ يَمِينُكَ»^(١)، و«لَا أَشْبَعُ اللَّهَ بَطْنُكَ»^(٢)، و«عَقَرَى حَلْقَى»^(٣)، وغيرها من دعواته.

وقد ورد في صفته في غير حديث أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن فحاشًا. وقال أنس: «لم يكن سبًّا ولا فاحشًا ولا لعانًا، وكان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له؟ تَرَبَّ جَبِينُهُ»^(٤). فيكون حمل الحديث على هذا المعنى، ثمَّ أشفق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من موافقة أمثالها إجابةً فعاهد ربّه، كما قال في الحديث أن يجعل

(١) صحيح البخاري (٢٨/١، ١٢٠/٨، ٢٧)، وصحيح مسلم (٢/١٠٦٩، ١٠٧٠).

(٢) صحيح مسلم (٤/٢٠١٠) بلفظ: «لَا أَشْبَعُ اللَّهَ بَطْنَهُ».

(٣) صحيح البخاري (١٤١/٢)، وصحيح مسلم (٢/٨٧٧). ومعناها: عقرها الله وحلقها، وهذا على مذهب العرب في الدعاء على الشيء من غير إرادة لوقوعه، لا يراد به الوقوع.

(٤) صحيح البخاري (٨/١٣).

ذلك للمقول له زكاةً ورحمةً وقربةً، وقد يكون ذلك إشفاقاً على المدعو عليه وتأنيساً له لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي ﷺ وتقبل دعائه ما يحمله على اليأس والقنوط، وقد يكون ذلك سؤالاً منه لربه لمن جلده أو سبه على حق وبوجه صحيح أن يجعل ذلك له كفارةً لما أصابه وتمحيهً لما اجترم وأن تكون عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران كما جاء في الحديث الآخر: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة»^(١).

فإن قلت: فما معنى حديث الزبير وقول النبي ﷺ له حين تخاصمه مع الأنصاري في شراح^(٢) الحرّة: «اسق يا زبير حتى يبلغ الكعبين»، فقال له الأنصاري: أن كان يا رسول الله ابن عمّتك؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال: «اسق يا زبير ثم اخبس حتى يبلغ الجدر» الحديث^(٣)؟ فالجواب أن النبي ﷺ منزه أن يقع بنفس مسلم منه في هذه القصة أمر يريب، ولكنه ﷺ ندب الزبير أولاً إلى الاقتصار على بعض حقه على طريق التوسط والصّلاح، فلمّا لم يرض بذلك الآخر ولجّ وقال ما لا يجب استوفى النبي ﷺ للزبير حقه ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث: «باب إذا أشار الإمام بالصّلاح فأبى حكم عليه بالحكم»، وذكر في آخر الحديث: فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذ للزبير حقه.

(١) صحيح البخاري (١٢/١)، وصحيح مسلم (٣/١٣٣٣).

(٢) هي مسایل الماء، واحداً شرجة.

(٣) المصدران السابقان (٣/١١١)، (٤/١٨٢٩).

وقد جعل المسلمون هذا الحديث أصلاً في قضيته، وفيه الاقتداء به
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل ما فعله في حال غضبه ورضاه وأنه وإن نهى أن يقضي
القاضي وهو غضبان فإنه في حكمه في حال الغضب والرضى سواء لكونه
فيها معصوماً، وغضب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا إنما كان لله تعالى لا لنفسه كما
جاء في الحديث الصحيح.



فصل في أفعاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيوية

وأما أفعاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدنيوية فعلى السداد والصواب، بل أكثرها أو كلها جارية مجرى العبادات والقرب على ما بينا؛ إذ كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأخذ منها لنفسه إلا ضرورته وما يقيم رَمَقَ جسمه وفيه مصلحة ذاته التي بها يعبد ربه ويُقيم شريعته ويُسوس أمته، وما كان فيما بينه وبين الناس من ذلك فبين معروف يصنعه أو برُّ يُوسِّعه أو كلام حسن يقوله أو يسمعه أو تألفٍ شارد أو قهرٍ مُعاند، أو مُداراةٍ حاسدٍ، وكلُّ هذا لاحقٌ بصالح أعماله منتظم في زاكي وظائف عباداته.

وقد كان يُخالف في أفعاله الدنيوية بحسب اختلاف الأحوال ويُعدُّ للأمور أشباهها فيركب الحمارَ لما قَرُبَ، وفي أسفاره الرَّاحلة، ويركب البغلة في معارك الحرب دليلاً على الثبات، ويركب الخيلَ ويُعِدُّها ليوم الفزع وإجابة الصَّارخ.

وكذلك في لباسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسائر أحواله بحسب اعتبار مصالحه ومصالح أمته، وكذلك يفعل الفعل من أمور الدنيا، وإن كان قد يرى غيره خيراً منه، كما يترك الفعل لهذا وقد يرى فعله خيراً منه.

وقد يفعل هذا في الأمور الدينية مما له الخيرة في أحد وجهيه، كخروجه من المدينة لأُحُدَ وكان مذهبه التَّحصنَ بها، وتركه قتلَ المنافقين وهو على يقينٍ من أمرهم مؤالفةً لغيرهم ورعايةً للمؤمنين من قرباتهم وكراهةً لأن يقول الناس: إنَّ محمداً يقتل أصحابه كما جاء في الحديث، وتركه بناء الكعبة

على قواعد إبراهيم مراعاةً لقلوب قريشٍ وتعظيمهم لتغيُّرها وحذرًا من نفار قلوبهم لذلك، وتحريكٍ متقدّمٍ عداوتهم للدين وأهله، فقال لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الحديث الصَّحيح: «لولا حَدَثَانُ قَوْمِكَ بالكُفْرِ لَأَتَمَمْتَ الْبَيْتَ عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ»^(١).

ويفعل الفعل ثم يتركه لكون غيره خيرًا منه، كانتقاله من أدنى مياه بدرٍ إلى أقربها للعدو من قريش، وكقوله: «لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما سَقَتُ الْهَدْيُ»^(٢).

ويسيطر وجهه للكافر والعدو رجاء استئلافه ويصبر للجاهل ويقول: «إِنْ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ»^(٣). ويؤدُّ له الرِّغائبَ ليحبَّ إليه شريعته ودين ربِّه، ويتولى في منزله ما يتولى الخادم من مهنته، ويتسمت في ملائحته حتّى لا يبدو منه شيءٌ من أطرافه وحتى كأنَّ على رؤوس جلسائه الطَّير، ويتحدّث مع جلسائه بحديث أولهم، ويتعجّب ممّا يتعجّبون منه، ويضحك ممّا يضحكون منه، وقد وسع النَّاسَ بِشْرُهُ وعدله، لا يستفزه الغضب ولا يقصّر عن الحقّ، ولا يُبطن على جلسائه، يقول: «ما كان لنبيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».

فإن قلت: فما معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في الداخل عليه: «بئس ابن العشيرة»، فلما دخل ألان له القول وضحك معه، فلمّا خرج سألته

(١) صحيح البخاري (١٤٦/٢)، وصحيح مسلم (٩٦٩/٢).

(٢) المصدران السابقان (٨٣/٩)، (٨٨٣/٢).

(٣) المصدران السابقان (١٣/٨)، (٢٠٠٢/٤).

عن ذلك قال: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ اتَّقَاهُ النَّاسُ لَشَرِّهِ»، وكيف جاز أن يُظهر له خلاف ما يبطن ويقول في ظهره ما قال؟

فالجواب أن فعله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان استئلافاً لمثله وتطبيباً لنفسه ليتمكّن إيمانه ويدخل في الإسلام بسببه أتباعه، ويراه مثله فينجذب بذلك إلى الإسلام، ومثل هذا على هذا الوجه قد خرج من حدّ مداراة الدنيا إلى السياسة الدنيّة، وقد كان يستألفهم بأموال الله العريضة فكيف بالكلمة اللينة؟

قال صفوان: لقد أعطاني وهو أبغض الخلق إليّ فما زال يعطيني حتّى صار أحبّ الخلق إليّ^(١).

وقوله فيه: «بئس ابن العشيرة» هو غير غيبة، بل هو تعريف ما علمه منه لمن لم يعلم ليحذر حاله ويحترز منه، ولا يُوثق بجانبه كلّ الثقة لا سيما وكان مُطاعاً متبوعاً، ومثل هذا إذا كان لضرورة ودفع مضرة لم يكن بغيبة، بل كان جائزاً بل واجباً في بعض الأحيان كعادة المحدثين في تجريح الرواة والمزكّين في الشهود.



(١) صحيح مسلم (٤/١٨٠٦).

فصل في الكلام على الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى غيره من الأنبياء من قبل

فإن قيل: فما الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه وعلى غيره من الأنبياء على جميعهم السلام، وما الوجه فيما ابتلاهم الله به من البلاء وامتحانهم بما امتحنوا به كأيوب ويعقوب ودانيال ويحيى وزكريا وعيسى وإبراهيم ويوسف وغيرهم صلوات الله عليهم، وهم خيرته من خلقه وأحبّاءه وأصفياؤه؟ فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن أفعال الله تعالى كلّها عدلٌ وكلماته جميعًا صدقٌ لا مبدلَ لكلماته، يتلى عباده كما قال لهم: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وقال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَلِنَبْلُوَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾.

فامتحانه إياهم بضروب المحن زيادة في مكانتهم ورفعة في درجاتهم وأسبابٌ لاستخراج حالات الصبر والرضى والشكر والتسليم والتوكل والتفويض والدعاء والتضرع منهم، وتأکید لبصائرهم في رحمة الممتحنين والشفقة على المبتليين، وتذكرة لغيرهم وموعظة لسواهم ليتأسسوا في البلاء بهم ويتسلّوا في المحن بما جرى عليهم ويقتدوا بهم في الصبر ليلقوا الله طيبين مهذبين وليكون أجرهم أكمل وثوابهم أوفر وأجزل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ما يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة^(١).

وكما قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٦١) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَكَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

وعن سعد رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»^(٢).

قالت عائشة رضي الله عنها: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣).

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه يُوعك وعكاً شديداً فقلت: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: «أجل إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»، قلت: ذلك أن لك الأجر مرتين قال: «أجل، ذلك كذلك»^(٤).

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ١٨٠)، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٢٥١).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٨٧)، وابن حبان في صحيحه (٧/ ١٦١)، والحاكم في المستدرک (٤/ ٣٥٠).

(٣) صحيح البخاري (٧/ ١١٥)، وصحيح مسلم (٤/ ١٩٩٠).

(٤) صحيح البخاري (٧/ ١١٥)، صحيح مسلم (٤/ ١٩٩١).

وحكمة أخرى أنّ الأمراض نذيرُ الممات، وبقدر شدّتها شدّةُ الخوف من نزول الموت، فيستعدُّ مَنْ أَصَابَتْهُ وَعَلِمَ تَعَهُدَهَا لَهُ لِلْقَاءِ رَبِّهِ وَيُعْرِضُ عَنْ دَارِ الدُّنْيَا الْكَثِيرَةِ الْأَنْكَادِ، وَيَكُونُ قَلْبُهُ مَعْلَقًا بِالْمَعَادِ، فَيَتَنَصَّلُ مِنْ كُلِّ مَا يَخْشَى تِبَاعَتَهُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ وَقَبْلِ الْعِبَادِ، وَيُؤَدِّي الْحَقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا، وَيَنْظُرُ فِيهَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ وَصِيَةٍ فَيَمْنُ يُخَلِّفُهُ أَوْ أَمْرٍ يَعْهَدُهُ.

وهذا نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المغفورُ له ما تقدّم وما تأخّر قد طلب التنصل في مرضه ممّن كان له عليه مال أو حق في بدن، وأقاد من نفسه وماله وأمكن من القصاص منه على ما ورد في حديث الفضل وحديث الوفاة، وأوصى بالثقلين بعده: كتاب الله وعثرته، وبالأنصار عيَّته.

وهكذا سيرة عباد الله المؤمنين وأوليائه المتقين، وهذا كلّهُ يُجْرِمُهُ غَالِبًا الْكُفَارُ لِإِمْلَاءِ اللَّهِ لَهُمْ لِيَزِدَادُوا إِثْمًا وَلِيَسْتَدْرِجَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿



البَابُ الْعَاشِرُ

في تصرف
وجوه الأحكام
فيمن تنقصه أو
سببه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



الباب العاشر في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقّصه أو سبّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



قد تقدّم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما يتعيّن له من برٍّ وتوقيرٍ وتعظيمٍ وإكرامٍ، وبحسب هذا حرّم الله تعالى أذاه في كتابه، وأجمعت الأمة على قتلٍ مُتنقّصه من المسلمين وسابّه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَتْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، وقال تعالى في تحريم التعريض له: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ الآية، وذلك أن اليهود كانوا يقولون: راعنا يا محمد، أي أرعنا سمعك واسمع منا ويعرّضون بالكلمة يريدون الرعونة، فنهى الله المؤمنين عن التشبه بهم، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها لئلا يتوصّل بها الكافر والمنافق إلى سبّه والاستهزاء به.

وقيل: بل لما فيه من مشاركة اللفظ لأنها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعت، وقيل: بل لما فيها من قلة الأدب وعدم توقير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وتعظيمه لأنها في لغة الأنصار بمعنى: ارعنا نرعك، فنهوا عن ذلك إذ مضمونه أنهم لا يرفعون إلا برعايته لهم وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجب الرعاية بكل حال.

هذا وهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نهى عن التكني بكنيته فقال: «سَمُّوا باسمي وَلَا تَكْنُوا بكنيتي»^(١) صيانةً لنفسه وحماية عن أذاه؛ إذ كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استجاب لرجل نادى: يا أبا القاسم، فقال: لم أعنك، إنما دعوتُ هذا، فنهى حينئذٍ عن التكني بكنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره لمن لم يدعه ويجد بذلك المنافقون والمستهزؤون ذريعةً إلى أذاه والإضرار به فينادونه، فإذا التفت قالوا: إنما أردنا هذا لسواه تعنيًا له واستخفافًا بحقه على عادة المُجَّان والمستهزئين، فحمى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى أذاه بكل وجه، فحمل محققو العلماء نهيه عن هذا على مدة حياته وأجازوه بعد وفاته لارتفاع العلة.

وللناس في هذا الحديث مذاهبٌ ليس هذا موضعها، وما ذكرناه هو مذهبُ الجمهور، والصوابُ إن شاء الله أن ذلك على طريق تعظيمه وتوقيره، وعلى سبيل النذب والاستحباب لا على التحريم، ولذلك لم ينه عن اسمه لأنه قد كان الله منع من ندائه به بقوله: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ وإنما كان المسلمون يدعونه: يا رسول الله، يا نبي الله، وقد يدعونه بكنيته «أبا القاسم»، بعضهم في بعض الأحوال.

وحكى محمد بن سعد أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ نظر إلى رجل اسمه محمد ورجل يسبه ويقول له: فعل الله بك يا محمد وصنع، فقال عمر لابن أخيه محمد بن

(١) صحيح البخاري (١/٣٣)، وصحيح مسلم (٣/١٦٨٢).

زيد بن الخطاب: لا أرى محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسبُّ بك والله لا تدعى محمدًا ما دمت حيًّا وسماه عبد الرحمن وأراد أن يمنع هذا أن يسمّى أحد بأسماء الأنبياء إكرامًا لهم بذلك وغير أسماءهم وقال لا تسمّوا بأسماء الأنبياء ثم أمسك^(١).
والصواب جواز هذا كله بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدليل إطباق الصحابة على ذلك، وقد سمى جماعة منهم ابنه محمدًا وكناه بأبي القاسم.



(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٥/ ٤٠)، وأحمد (٢٩/ ٤٢٧).

فصل في بيان ما هو في حقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبُّ أو نَقْصٌ من تعريض أو نص

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع مَنْ سَبَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عابه أو ألحق به نقصاً في نفسه أو نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض به أو شبهه بشيء على طريق السب له أو الإضرار عليه أو التّصغير لشأنه أو الغص منه والعيب له فهو سَابٌّ له، والحكم فيه حكم السَّابِّ يُقْتَلُ كما نبينّه، ولا يمتري فيه تصريحاً كان أو تلويحاً.

وكذلك مَنْ لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرّة له أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسُخْفٍ من الكلام وهُجْرٍ ومنكر من القول وزور أو عيّر به بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمّصه ببعض العوارض البشريّة الجائزة والمعهودّة لديه.

وهذا كلّ إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصّحابة رضوان الله عليهم إلى هلمّ جرّاً.

قال أبو بكر ابن المنذر: أجمع عوامُّ أهل العلم على أن من سَبَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقْتَلُ، وممن قال ذلك مالك بن أنس والليث وأحمد وإسحاق وهو مذهب الشافعي^(١). وهو مقتضى قول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ،

(١) انظر: التمهيد لابن عبد البر (٤/ ٢٢٦).

ولا تُقبل توبته عند هؤلاء، وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلمين، لكنهم قالوا: هي ردة. وروى مثله الوليد بن مسلم عن مالك، وحكى الطبري مثله عن أبي حنيفة وأصحابه فيمن تنقصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو برئ منه أو كذبه.

وقال سحنون فيمن سبه: ذلك ردة كالزندقة، وعلى هذا وقع الخلاف في استتابته وتكفيره، وهل قتله حدٌّ أو كفرٌ كما سنيته إن شاء الله تعالى.

ولا نعلم خلافاً في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة، وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره، وأشار بعض الظاهرية وهو أبو محمد علي بن أحمد الفارسي^(١) إلى الخلاف في تكفير المستخف به والمعروف ما قد مناه.

قال محمد بن سحنون: أجمع العلماء أن شاتم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتنقص له كافرٌ والوعيد جارٍ عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة قتلٌ، ومن شك في كفره وعذابه كفر.

واحتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه^(٢) في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نؤيرة لقوله عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صاحبكم.

(١) هو ابن حزم، وما ذكره في المحلى (٤٣٦/١٢ - ٤٤٢) يدل على عدم وجود خلاف في ذلك.

(٢) أبو إسحاق، قال ابن فرحون: «كان خيراً فقيهاً عالماً بالتفسير... لقي سحنوناً وروى عنه».

الديباج المذهب (٢٥٩/١)، وقصة خالد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مع مالك في تاريخ الطبري (٢٨٠/٣).

وقال أبو سليمان الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً^(١).

وقال ابن القاسم عن مالك في كتاب ابن سحنون والمبسوط والعُتْبِيَّة^(٢)، وحكاه مطرّف عن مالك في كتاب ابن حبيب: مَنْ سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المسلمين قُتِلَ ولم يُسْتَتَب.

قال ابن القاسم في العتبية: من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقصه فإنه يقتل وحكمه عند الأمة القتل كالزندق، وقد فرض الله تعالى توقيره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبرّه. وفي المبسوط عن عثمان بن كنانة: من شتم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المسلمين قتل أو صلب حياً ولم يستتب، والإمام مخير في صلبه حياً أو قتله. ومن رواية أبي المصعب وابن أبي أويس: سمعنا مالكا يقول: من سب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل، مسلماً كان أو كافراً، ولا يستتاب.

وفي كتاب محمد أخبرنا أصحاب مالك أنه قال: من سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب، وقال أصبغ^(٣): يقتل على كل حال أسرّ ذلك أو أظهره ولا يستتاب؛ لأنّ توبته لا تعرف.

(١) معالم السنن (٣/٢٩٦).

(٢) هو كتاب ألفه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن أبي عتبة، الأموي مولاهم، المشهور بالعتبي، قال ابن الفرضي: «كان حافظاً للمسائل، جامعاً لها، عالماً بالنوازل»، توفي سنة ٢٥٥هـ. وكتابه هذا يسمى «المستخرجة» أيضاً. انظر: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي (٢/٨)، ترتيب المدارك (٤/٢٥٢-٢٥٣).

(٣) هو ابن الفرج بن سعيد أبو عبد الله الأموي مولاهم، المصري، مفتي الديار المصرية، قال ابن معين: «كان من أعلم خلق الله برأي مالك، يعرفها مسألة مسألة، متى قالها مالك، =

وحكى الطَّبْرِيُّ مثله عن أشهب عن مالك، وروى ابن وهب عن مالك: من قال إن رداء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويروى: زَرَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسخ أراد به عيبه قتل^(١).

وقال بعض علمائنا: أجمع العلماء على أنَّ مَنْ دعا على نبيٍّ من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة.

وأفتى أبو الحسن القاسبي فيمن قال في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الجمال يتيم أبي طالب بالقتل، وأفتى أبو محمد ابن أبي زيد^(٢) بقتل رجلٍ سمع قومًا يتذكرون صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ مرَّ بهم رجل قبيح الوجه واللحية، فقال لهم: تريدون تعرفون صفته، هي في صفة هذا المارِّ في خلقه ولحيته. قال: ولا تقبل توبته، وقد كذب لعنه الله وليس يخرج من قلب سليم الإيمان. قال حبيب بن الريع^(٣): لأن ادّعاء التأويل في لفظٍ صُراحٍ لا يُقبل، إنه استهان وهو غير معزّر لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا موقّر له فوجب إباحة دمه.

= ومن خالفه فيها، توفي سنة ٢٢٥هـ. انظر: ترتيب المدارك (٤/ ١٧-٢٢)، سير أعلام النبلاء (١٠/ ٦٥٦-٦٥٧).

(١) النوادر والزيادات (١٤/ ٥٢٩).

(٢) هو عبد الله بن أبي زيد القيرواني، شيخ المالكية، يقال له: مالك الصغير، وقد أثنى عليه المؤلف ثناءً عطرًا في ترتيب المدارك وذكر أنه هو الذي لخص المذهب وملاً البلاد من تأليفه، ووصفه الذهبي بالإمام القدوة عالم أهل المغرب، مات سنة ٣٨٩هـ. انظر: ترتيب المدارك (٤/ ٤٩٢-٤٩٧)، سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٠-١٣).

(٣) قال القاضي عياض: «مولي أحمد بن أبي سليمان الفقيه، كان فقيهاً عابداً»، مات سنة ٣٣٩هـ. ترتيب المدارك (٥/ ٣٣٦)، الديباج المذهب (١/ ٣٣٦).

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقه الطُّلَيْطِيَّ وَصَلِّهِ بِمَا شَهِدَ عليه به من استخفافه بحق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسميته إِيَّاهُ أثناء مناظرته باليتيم وختن حيدرة وزعمه أنَّ زهده لم يكن قصداً، ولو قدر على الطيبات أكلها إلى أشباه لهذا.

وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري، وكان شاعراً متفنناً في كثير من العلوم، وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبي العباس ابن طالب^(١) للمناظرة، فرفعت عليه أمور منكرة من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحضر له القاضي يحيى بن عمر^(٢) وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه، فطعن بالسكين وصلب منكساً، ثم أنزل وأحرق بالنار.

وحكى بعض المؤرخين أنه لما رفعت خشبته وزالت عنها الأيدي استدارت وحوّلت عن القبلة، فكان آية للجميع وكبر الناس.

وقال القاضي أبو عبد الله ابن المرباط^(٣): من قال: إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) عبد الله بن طالب بن سفيان التميمي القيرواني، تفقه بسفيان وكان من كبار أصحابه، وتقلد القضاء بقيروان مرتين، وقد أطل القاضي عياض في ترجمته بذكر امتحانه في آخر عمره من والي قيروان، وتعذيبه في السجن، حتى مات رَحِمَهُ اللهُ، وكان ذلك سنة ٢٧٥هـ، وعمره ٥٨ سنة. ترتيب المدارك (٤/٣٠٨-٣٣١)، الديباج المذهب (١/٤٢١-٤٢٣).

(٢) هو يحيى بن عمر بن يوسف الكنائي، أبو زكريا الجياني، سكن القيروان، جاب بلاد المشرق فأخذ عن الكثيرين، فصار إماماً في الفقه مع التبعيد والزهد في الدنيا، وكان مجاب الدعوة مهيباً، وطلب إلى القضاء عدة مرات، وكان يرفض إلى أن ولي، مات سنة ٢٨٩هـ. ترتيب المدارك (٤/٣٥٧-٣٦٤).

(٣) محمد بن خلف بن سعيد المري، قال ابن فرحون: «فقيه بلده ومفتيه، ولي قضاء مندة، كان من أهل الفقه والفضل والتفنن»، مات سنة ٤٨٥هـ. انظر: الديباج المذهب (٢/٢٤٠)، سير أعلام النبلاء (١٩/٦٦-٦٧).

هزم يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، لأنه تنقّص، إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصّته، إذ هو على بصيرة من أمره ويقين من عصمته.

وقال ابن عتاب: الكتاب والسنة موجبان أن مَنْ قصد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأذى أو نقص معرّضاً أو مصرّحاً وإن قُلَّ فقتله واجب.

فهذا الباب كلّه ممّا عدّه العلماء سبّاً أو تنقّصاً يجب قتل قائله، لم يختلف في ذلك متقدّمهم ولا متأخّره، وإن اختلفوا في حكم قتله على ما أشرنا إليه ونبيّنه بعد.

وكذلك حكم من غمّصه أو عيّره برعاية الغنم أو السّهو أو النسيان أو السّحر أو ما أصابه من جرح أو هزيمة لبعض جيوشه أو أذى من عدوه أو شدة من زمنه أو بالميل إلى نسائه فحكم هذا كلّه لمن قصد به نقصه القتل، وقد مضى من مذاهب العلماء في ذلك ويأتي ما يدل عليه.



فصل في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه صلى الله عليه وسلم

فمن القرآن لعنه تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة وقرانه تعالى أذاه بأذاه ولا خلاف في قتل من سب الله وأن اللعن إنما يستوجه من هو كافر، وحكم الكافر القتل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾، وقال في قاتل المؤمن مثل ذلك، فمن لعنته في الدنيا القتل، قال الله تعالى: ﴿مَلْعُونٌ أَيْنَمَا يُقْفَوْا أُخَذُوا وَقَتِّلُوا تَفْتِيلًا﴾، وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾. وقد يقع القتل بمعنى اللعن، قال: ﴿قُتِلَ الْخَرَّصُونَ﴾، و﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْفٌ يُوَفَّكُونَ﴾، أي لعنهم الله. ولأنه فرق بين أذاهما وأذى المؤمنين، وفي أذى المؤمنين ما دون القتل من الضرب والنكال، فكان حكم مؤذي الله ونبيه أشد من ذلك وهو القتل.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فسلب اسم الإيمان ممن وجد في صدره حرجاً من قضائه ولم يسلم له، ومن تنقصه فقد ناقض هذا.

وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، ولا يحبط العمل إلا الكفر والكافر يقتل.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فِئَئِسَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِكُمْ وَعِبَادِهِمْ وَرُسُلِهِمْ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذِرُوا فَمَا كُنْتُمْ بِعَدِّ إِيمَانِكُمْ﴾، قال أهل التفسير: كفرتم بقولكم في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأما الإجماع فقد ذكرناه.

وأما الآثار ففي الحديث الصحيح أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل كعب ابن الأشرف وقوله: «مَنْ لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، فَإِنَّهُ يُؤْذِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ»^(١)، ووجه إليه مَنْ قتله غيلةً دون دعوة بخلاف غيره من المشركين وعلل بأذاه له، فدلَّ أنَّ قتله إياه لغير الإشراف بل للأذى.

وكذلك قتل أبا رافع. قال البراء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: وكان يؤذي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويُعين عليه^(٢).

وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خَطَلٍ وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان بسببه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٣).

(١) صحيح البخاري (٣/١٤٢)، وصحيح مسلم (٣/١٤٢٥).

(٢) صحيح البخاري (٥/٩١).

(٣) صحيح البخاري (٣/١٧)، وصحيح مسلم (٢/٩٨٩).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمٌّ وَلَدَ تَسُبُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَزَجِرُهَا فَلَا تَنْزَجِرُ، فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيْلَةٍ جَعَلَتْ تَقْعُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَشْتَمُهُ، فَقَتَلَهَا وَأَعْلَمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَأَهْدَرَ دَمَهَا^(١).

وفي حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ يَوْمًا جَالِسًا عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، فَغَضِبَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ - وَحَكَى الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأُئِمَّةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ سَبَّ أَبَا بَكْرٍ، وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ: أَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَقَدْ أَغْلَظَ لِرَجُلٍ -، فَرَدَّ عَلَيْهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: يَا خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ، دَعْنِي أَضْرِبَ عُنُقَهُ فَقَالَ: اجْلِسْ فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢).

قال القاضي أبو محمد ابن نصر^(٣): ولم يخالف عليه أحد، فاستدل الأئمة بهذا الحديث على قتل مَنْ أغضب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكل ما أغضبه أو آذاه أو سبه.

ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عامله بالكوفة وقد استشاره في قتل رجل سبَّ عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فكتب إليه عمر: إنه لا يحل قتل امرئ مسلم بسبِّ أحدٍ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلًا سَبَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ سَبَّهُ فَقَدْ حَلَّ دَمَهُ^(٤).

(١) أخرجه أبو داود (١٢٩/٤)، والحاكم في المستدرک (٣٩٤/٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٢٩/٤) والنسائي (١٠٨/٧) وأحمد (٢٢٢/١).

(٣) هو عبد الوهاب بن علي بن نصر أبو محمد الفقيه المالكي، قال الخطيب: «وكان ثقة لم نلق من المالكيين أحداً أفقه منه، وكان حسن النظر جيد العبارة»، مات بمصر سنة ٤٢٢ هـ. تاريخ بغداد (٢٩٢/١٢).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي (٣١٩/٨).

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار أن مَنْ سَبَّه أو تنقصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد ظهرت علامة مَرَضٍ قلبه وبرهان سِرِّ طَوَيْتِهِ وكُفْرِهِ، ولهذا حكم عليه كثير من العلماء بالرَّدَّة، وهي رواية الشَّامِيِّينَ عن مالك والأوزاعي وقول الثَّورِيِّ وأبي حنيفة والكوفيِّين، والقول الآخر أنَّه دليل على الكفر، فيقتل حدًّا وإن لم يحكم له بالكفر، إلَّا أن يكون متماذيًّا على قوله غير مُنْكَرٍ له ولا مُقْلَعٍ عنه فهذا كافر. وقوله إما صريح كُفْرٍ كالتكذيب ونحوه أو من كلمات الاستهزاء والذَّم، فاعترافه بها وترك توبته عنها دليل استحلاله لذلك، وهو كفر أيضًا، فهذا كافر بلا خلاف.

قال الله تعالى في مثله: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، قال أهل التفسير: هي قولهم: إن كان ما يقول محمد حقًا لنحن شرٌّ من الحمير، وقيل: بل قول بعضهم: ما مثلنا ومثل محمد إلا قول القائل سمَّن كلبك يأكلك وقولهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، وقد قيل: إن قائل مثل هذا إن كان مستترًا به أن حكمه حكم الزنديق يُقْتَل، ولأنه قد غيَّر دينه، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ غَيَّرَ دِينَهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ»^(١)، ولأن لحكم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحرمة مزية على أمته، وسابُّ الحرِّ من أمته يحدُّ، فكانت العقوبة لمن سبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القتل لعظيم قدره وشُفُوفِ منزلته على غيره.

(١) صحيح البخاري (٤ / ٦١)، بلفظ: «من بدل دينه فاقتلوه».

فصل في أسباب عدم قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعض من سبه أو تنقصه

فإن قلت: فلم لم يقتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليهودي الذي قال له: السَّام عليكم وهذا دعاءٌ عليه؟ ولا قتل الآخر الذي قال له: إن هذه لقسمة ما أُريد بها وجهُ الله وقد تأذى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك وقال: قد أؤذي موسى بأكثر من هذا فصبر؟ ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان؟ فاعلم - وفقنا الله وإياك - أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أوَّل الإسلام يستألف عليه الناس ويُميل قلوبهم ويحبُّ إليهم الإيمانَ ويزيِّنه في قلوبهم ويدارهم ويقول لأصحابه: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ ميسرين ولم تُبْعَثُوا منفرين»^(١)، ويقول: «يسِّروا ولا تعسِّروا وسكِّنوا ولا تنفِّروا»^(٢)، ويقول: «لا يتحدث الناسُ أن محمداً يقتل أصحابه»^(٣).

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُداري الكفارَ والمنافقين ويُجملُ صحبتهم ويُغضي عنهم ويحتمل من أذاهم ويصبر على جفائهم ما لا يجوز لنا اليوم الصبرُ لهم عليه، وكان يُرفقهم بالعتاء والإحسان، وبذلك أمره الله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ

(١) صحيح البخاري (١/٥٤).

(٢) صحيح البخاري (١/٢٥)، وصحيح مسلم (٣/١٣٥٨).

(٣) المصدران السابقان (٦/١٥٤)، (٤/١٩٩٨).

عَدُوٌّ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿١٠٠﴾، وذلك لحاجة الناس للتألفِ أَوَّلَ الإسلامِ وجمع الكلمة عليه.

فلَمَّا استقرَّ وأظهره الله على الدِّينِ كُلِّهِ قَتَلَ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ واشتَهَرَ أمره، كفعله بآبَنِ خَطْلٍ وَمَنْ عَهْدَ بِقَتْلِهِ يَوْمَ الْفَتْحِ وَمَنْ أَمَكَنَهُ قَتْلُهُ غِيْلَةً مِنْ يَهُودٍ وَغَيْرِهِمْ أَوْ غَلَبَةً مَنْ لَمْ يَنْظُمِهِ قَبْلُ سَلَكُ صَحْبَتِهِ وَالْإِنْخِرَاطُ فِي جَمَلَةٍ مُظْهِرِي الْإِيمَانِ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْذِيهِ كَابَنُ الْأَشْرَفِ وَأَبِي رَافِعٍ وَالنَّضْرَ وَعَقْبَةَ.

وكذلك نذر دم جماعة سواهم ككعب بن زهير وابن الزبير وغيرهما مَنْ آذَاهُ حَتَّى أَلْقَوْا بِأَيْدِيهِمْ وَلَقَوْهُ مُسْلِمِينَ.

وبواطنُ المنافقين مستترة، وحكمه صلى الله عليه وسلم على الظاهر، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائلُ منهم خُفِيَّةً وَمَعَ أَمْثَالِهِ، وَيَحْلِفُونَ عَلَيْهَا إِذَا نُمِيتَ وَيُنْكِرُونَهَا، وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ، وَكَانَ مَعَ هَذَا يَطْمَعُ فِي فَيَأْتِيهِمْ وَرَجُوعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَتَوْبَتُهُمْ، فَيَصْبِرُ صلى الله عليه وسلم عَلَى هَنَاتِهِمْ وَجَفَوْتِهِمْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعِزِّ مِنَ الرِّسَالِ، حَتَّى فَاءَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ بَاطِنًا كَمَا فَاءَ ظَاهِرًا، وَأَخْلَصَ سِرًّا كَمَا أَظْهَرَ جَهْرًا، وَنَفَعَ اللَّهُ بَعْدُ بِكَثِيرٍ مِنْهُمْ، وَقَامَ مِنْهُمْ لِلدِّينِ وَزُرَاءُ وَأَعْوَانُ وَحُمَاةُ وَأَنْصَارُ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَخْبَارُ.

وبهذا أجاب بعضُ أئمتنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ، قَالَ: وَلَعَلَّهُ لَمْ يَثْبِتْ عِنْدَهُ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَقْوَالِهِمْ مَا رُفِعَ، وَإِنَّمَا نَقَلَهُ الْوَاحِدُ وَمَنْ لَمْ يَصِلْ رَتَبَةُ الشَّهَادَةِ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ صَبِيٍّ أَوْ عَبْدٍ أَوْ امْرَأَةٍ، وَالْدَّمَاءُ لَا تُسْتَبَاحُ إِلَّا أَلَّا يَبْدُلِينَ، وَعَلَى هَذَا يَحْمِلُ أَمْرُ الْيَهُودِيِّ فِي السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَوْ أَنَّكُمْ بِهِ أَلَسْتُمْ

ولم يبينوه، ألا ترى كيف نبّهت عليه عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، ولو كان صرّح بذلك لم تنفرد بعلمه.

ولهذا نبّه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه على فعلهم، وقلة صدقهم في فعلهم، وقلة صدقهم في سلامهم، وخيانتهم في ذلك، ليّاً بألستهم وطعناً في الدين، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْيَهُودَ إِذَا سَلَّمَ أَحَدَهُمْ فَإِنَّمَا يَقُولُ: السَّامَ عَلَيْكُمْ فَقُولُوا: عَلَيْكُمْ»^(١).

وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديين: إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم ولم يأت أنه قامت بيّنة على نفاقهم، فلذلك تركهم.

وأيضاً فإن الأمر كان سرّاً وباطناً وظاهرهم الإسلام والإيمان، وإن كان من أهل الذمّة بالعهد والجوار، والناس قريبٌ عهدُهم بالإسلام لم يتميّز بعدُ الخبيثُ من الطيب.

وقد شاع عن المذكورين في العرب كونُ مَنْ يُتَّهَمُ بالنِّفاقِ مِنْ جملة المؤمنين وصحابة سيّد المرسلين وأنصار الدين بحكم ظاهرهم، فلو قتلهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنفاقهم وما يبدر منهم وعِلْمِهِ بما أسروا في أنفسهم لوجد المنفر ما يقول ولا رتاب الشارد وأَرْجَفَ المعاند وارتاع من صحبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدّخولِ في الإسلام غير واحد، وَلَزَعَمَ الرَّاعِمُ وظنَّ العدوُّ الظَّالِمُ أن القتل إنما كان للعداوة وطلبِ أخذِ الثَّرةِ.

(١) صحيح البخاري (٥٧ / ٨)، وصحيح مسلم (١٧٠٥ / ٤).

وقد رأيتُ معنى ما حررته منسوباً إلى مالك بن أنس، ولهذا قال **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»، وقال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»^(١).

وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا والقتل وشبهه لظهورها واستواء الناس في علمها، وقد قال محمد بن المراز: لو أظهر المنافقون نفاقهم لقتلهم النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، وقاله القاضي أبو الحسن بن القصار.

وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنْفِكَنَّ الْمُتَفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٦٠) **مَلْعُونِينَ** أَيَنَّمَا تُقْفَوْا أُخْذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا، قال: معناه إذا أظهروا النفاق^(٢).

وقال بعض مشايخنا: لعلَّ القائل: «هذه قسمة ما أريد بها وجه الله» وقوله «اعدل» لم يفهم النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** منه الطعن عليه والتهمة له وإنما رآها من وجه الغلط في الرأي وأمور الدنيا والاجتهاد في مصالح أهلها، فلم ير ذلك سباً ورأى أنه من الأذى الذي له العفو عنه والصبر عليه، فلذلك لم يعاقبه.

وكذلك يقال في اليهود إذ قالوا: السّام عليكم ليس فيه صريح سب ولا دعاء إلا بما لا بد منه من الموت الذي لا بد من لحاقه جميع البشر.

(١) أخرجه مالك في الموطأ، والشافعي في مسنده (ص ٣٢٠)، وأحمد (٣٩/٧٣).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/٣٢٨).

وقيل: بل المرادُ تسأمون دينكم، والسَّامُ والسَّامةُ الملال، وهذا دعاءٌ على سامة الدين ليس بصريح سبٍّ، ولهذا ترجم البخاريُّ على هذا الحديث «باب إذا عَرَّضَ الذَّمِّيُّ أو غيره بسبِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»^(١). قال بعض علمائنا: وليس هذا بتعريض بالسبِّ وإنَّما هو تعريض بالأذى.

وقد قدّمنا أنَّ الأذى والسبَّ في حقِّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سواء، وقال القاضي أبو محمد ابن نصر مجيباً عن هذا الحديث ببعض ما تقدم، ثم قال: ولم يُذكَرْ في الحديث هل كان هذا اليهوديُّ من أهل العهد والذمة أو الحرب ولا يُتْرَكُ موجبُ الأدلة للأمر المحتمل، والأولى في ذلك كُلهُ والأظهرُ من هذه الوجوه مقصدُ الاستتلاف والمداراة على الدين لعلهم يؤمنون، ولذلك ترجم البخاريُّ على حديث القسمَةِ والخوارج «باب من ترك قتال الخوارج للتألّف ولئلا ينفر النَّاسُ عنه»^(٢) ولِما ذكرنا معناه عن مالك وقرنائه قبل، وقد صبر لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سحره وسمِّه وهو أعظم من سبه، إلى أن نصره الله عليهم وأذن له في قتل مَنْ عَيَّنه منهم وإنزالهم من صياصيتهم وقذف في قلوبهم الرعب وكتب على مَنْ شاء منهم الجلاء وأخرجهم من ديارهم وخرَّب بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين وحكَّم فيهم سيوف المسلمين وأجلاهم من جوارهم وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم؛ لتكونَ كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى^(٣).

(١) صحيح البخاري (١٥/٩).

(٢) المصدر السابق (١٧/٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٦٧/٥)، والحاكم في المستدرک (٣٧/٣).

فإن قلت: فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله» فاعلم أن هذا لا يقتضي أنه لم ينتقم ممن سبّه أو آذاه أو كذبه، فإن هذه من حرّمات الله التي انتقم لها، وإنّما يكون ما لا ينتقم منه له فيما تعلّق بسوء أدب أو معاملة من القول والفعل بالنفس والمال مما لم يقصد فاعله به آذاه، لكن مما جُبِلت عليه الأعراب من الجفاء والجهل أو جُبِلَ عليه البشر من السفه، كجذب الأعرابي رداءه حتى أثر في عنقه وكرّع صوت الآخر عنده وكجحد الأعرابي شراءه منه فرسه التي شهد فيها خزيمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكما كان من تظاهر زوجه عليه وأشباه هذا ممّا يحسن الصّفح عنه.

وقد قال بعض علمائنا: إنّ أذى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرام لا يجوز بفعل مباح ولا غيره، وأمّا غيره فيجوز بفعل مباح مما يجوز للإنسان فعله وإن تأذى به غيره، واحتج بعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، وبقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إنها بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها، ألا وإنّي لا أحرم ما أحلّ الله، ولكن لا تجتمع ابنة رسول الله وابنة عدوّ الله عند رجل أبداً»^(١). أو يكون هذا مما آذاه به كافر رجاً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك إسلامه، كعفوه عن اليهودي الذي سحره وعن الأعرابي الذي أراد قتله وعن اليهودية التي سمّته، وقد قيل: قتلها، ومثل هذا ممّا يبلغه من أذى أهل الكتاب والمنافقين فصّح عنهم رجاء استئلافهم واستئلاف غيرهم كما قرّناه قبل، وبالله التوفيق.

(١) صحيح البخاري (٥/٢٢)، وصحيح مسلم (٤/١٩٠٢).

فصل

تقدم الكلام في قتل القاصد لسبه والإضرار به وغمصه بأي وجه كان من ممكن أو محال، فهذا وجه بين لا إشكال فيه.

الوجه الثاني لاجق به في البيان والجلاء، وهو أن يكون القائل لما قال في جهته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غير قاصد للسب والإضرار ولا معتقد له، ولكنه تكلم في جهته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلمة الكفر من لعنه أو سبه أو تكذيبه، أو إضافة ما لا يجوز عليه أو نفى ما يجب له مما هو في حقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نقيضة، مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة أو مdahنة في تبليغ الرسالة أو في حكم بين الناس، أو يغض من مرتبته أو شرف نسبه أو وفور علمه أو زهده، أو يكذب بها اشتهر من أمور أخبر بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتواتر الخبر بها عن قصد لرد خبره، أو يأتي بسفه من القول أو قبيح من الكلام ونوع من السب في جهته وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يعتمد ذمه ولم يقصد سبه إمّا لجهالة حملته على ما قاله أو لضجر أو سكر اضطره إليه أو قلة مراقبة وضبط للسانه، وعجرفة وتهور في كلامه، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول القتل دون تلثم؛ إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة ولا بدعوى زلل اللسان ولا بشيء مما ذكرناه إذا كان عقله في فطرته سليماً، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان.

وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزهد عن رسول الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قدَّمناه. وعن أبي محمد ابن أبي زيد: لا يعذر بدعوى زلل اللسان في مثل هذا^(١).

وأفتى أبو الحسن القاسبي فيمن شتم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُكْرِهِ يقتل؛ لأنه يُظن به أنه يعتقد هذا ويفعله في صحوه، وأيضاً فإنه حدٌ لا يسقطه السُّكْر كالقذف والقتل وسائر الحدود، لأنه أدخله على نفسه؛ لأن من شرب الخمر على علم من زوال عقله بها وإتيان ما ينكر منه فهو كالعامد لما يكون بسببه، وعلى هذا ألزمناه الطلاق والعتاق والقصاص والحدود، ولا يعترض على هذا بحديث حمزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقوله للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وهل أنتم إلا عبيدٌ لأبي»، قال: فعرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ثَمَلٌ فانصرف^(٢)، لأن الخمر كانت حينئذٍ غير محرمة.

الوجه الثالث أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله أو أتى به أو وجوده أو يكفر أو ينفي نبوته أو رسالته به - انتقل بقوله ذلك إلى دينٍ آخر غير ملته أم لا - فهذا كافر بإجماع يجب قتله.

ثم ينظر؛ فإن كان مصرحاً بذلك كان حكمه أشبه بحكم المرتد وقوي الخلاف في استتابته، وعلى القول الآخر لا تُسقطُ القتل عنه توبته لحق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كان ذكره بنقيصة فيما قاله من كذب أو غيره. وإن كان مستتراً بذلك فحكمه حكم الزنديق لا تُسقطُ قتله التوبة عندنا كما سنبينه.

(١) انظر: النوادر والزيادات (١٤/ ٥٢٥-٥٢٨).

(٢) صحيح البخاري (٣/ ١١٤)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٦٨).

قال أبو حنيفة وأصحابه: من برئ من محمد ﷺ أو كذب به فهو مرتدٌ حلال الدَّم إلا أن يرجع.

وقال ابن القاسم في المسلم إذا قال: «إنَّ محمدًا ليس بنبي أو لم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيء تقوَّله»: يقتل، وقال: ومن كفر برسول الله ﷺ وأنكره من المسلمين فهو بمنزلة المرتد، وكذلك مَنْ أعلن بتكذيبه أنه كالمرتد يستتاب، وكذلك قال فيمن تنبأ وزعم أنه يوحى إليه، وقاله سحنون. وقال ابن القاسم: دعا إلى ذلك أو جهر.

وقال أشهب في يهوديٍّ تنبأ أو زعم أنَّه أرسل إلى النَّاس أو قال: بعد نبىكم نبيُّ الله يُستتاب إن كان مُعلنًا بذلك، فإن تاب وإلا قُتل، وذلك لأنه مكذب للنبي ﷺ في قوله: «لا نبيَّ بعدي»، مفترٍ على الله في دعواه عليه الرسالة والنبوة^(١).

وقال محمد بن سحنون: من شك في حرف مما جاء به محمد ﷺ عن الله فهو كافر جاحد، وقال: مَنْ كذب النبي ﷺ كان حكمه عند الأمة القتل.

قال حبيب بن ربيع: تبديلُ صفته ومواضعه كفر، والمظهر له كافر، وفيه الاستتابة والمسرُّ له زنديق يقتل دون استتابة^(٢).

(١) النوادر والزيادات (١٤/ ٥٣٢).

(٢) نقل كل ذلك المقرئ في إمتاع الأسماء (١٤/ ٣٨٧).

الوجه الرابع أن لا يقصد نقصاً ولا يذكر عيباً ولا سباً، لكنه ينزع بذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل والحجة لنفسه أو لغيره أو على التشبه به أو عند هزيمة نالته أو غضاضة لحقته ليس على طريق التأسي وطريق التحقيق، بل على مقصد الترفيع لنفسه أو لغيره أو على سبيل التمثيل وعدم التوقير لنبیه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو قصد الهزل والتندير بقوله، كقول القائل: إن قيل فيّ السوء فقد قيل في النبي، أو إن كُذِّبْتُ فقد كُذِّبَ الأنبياء أو إن أذنبْتُ فقد أذنبوا أو أنا أسلم من ألسنة الناس ولم يسلم منهم أنبياء الله ورسله أو قد صبرتُ كما صبر أولو العزم أو كصبر أيوب، أو قد صبر نبي الله عن عداه وحلم على أكثر مما صبرتُ، وكقول المتنبي:

أنا في أمة تداركها الـ هـ غريبٌ كصالحٍ في ثمود

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول المتساهلين في الكلام.

وجاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس وأصحابه في النوادر من رواية ابن أبي مريم في رجل عير رجلاً بالفقر، فقال: تُعيرني بالفقر وقد رعى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الغنم، فقال مالك: قد عرض بذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غير موضعه أرى أن يؤدّب، قال: ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عوتبوا أن يقولوا: قد أخطأت الأنبياء قبلنا^(١).

(١) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٩).

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: انظر لنا كاتباً يكون أبوه عربياً، فقال كاتب له: قد كان أبو النبي كافراً. فقال: جعلت هذا مثلاً، فعزله وقال: لا تكتب لي أبداً^(١).

وقد كره سحنون أن يصلى على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب، توقيراً له وتعظيماً كما أمرنا الله^(٢).

وقال أبو الحسن القاسبي في شاب معروف بالخير قال لرجل شيئاً فقال له الرجل: اسكت فإنك أمي فقال الشاب: أليس كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمياً؟ فشنع عليه مقاله وكفره الناس وأشفق الشاب مما قال وأظهر الندم عليه، فقال أبو الحسن: أما إطلاق الكفر عليه فخطأ، لكنه مخطئ في استشهاده بصفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكون النبي أمياً آية له وكون هذا أمياً نقيصة فيه وجهالة، ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه إذا استغفر وتاب واعترف ولجأ إلى الله فيترك، لأن قوله: لا ينتهي إلى حد القتل، وما طريقه الأدب فطوع فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه.

ونزلت أيضاً مسألة استفتى فيها بعض قضاة الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد ابن منصور^(٣) في رجل تنقصه آخر بشيء فقال له: إنما تريد نقصي

(١) المصدر السابق (١٤/٥٢٩).

(٢) النوادر والزيادات (١٤/٥٣٠).

(٣) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور أبو محمد اللخمي، قال القاضي عياض في الغنية (ص ١٥٥): «كان من أهل الفهم والنباهة والنظر والتفنن والمشاركة في ضروب العلم، ناظرنا عنده في المدونة والموطأ وأصول الفقه والدين، وكان يحضر مجلسه الأكابر من شيوخنا وأصحابه لكثرة فائدته... ولي قضاء بلدنا (لعله يعني غرناطة) بعد خمسمائة... استعفى فعوفي سنة عشر، ثم قلد قضاء سبتة سنة ٥١٢هـ إلى أن توفي سنة ٥١٣هـ».

بقولك، وأنا بشرٌ وجميعُ البشر يلحقهم النقص حتى النبي ﷺ، فأفتاه بإطالة سجنه وإيجاع أدبه إذ لم يقصد السبَّ، وكان بعضُ فقهاء الأندلس أفتى بقتله.

الوجه الخامس أن يقول القائل ذلك حاكياً عن غيره وآثراً له عن سواه، فهذا يُنظر في صورة حكايته وقرينة مقالته، ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه: الوجوب والندب والكراهة والتحريم.

فإن كان أخبر به على وجه الشهادة والتعريف بقائله والإنكار والإعلام بقوله والتنفير منه والتجريح له فهذا مما ينبغي امتثاله ويحمد فاعله، وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الردِّ له والنقض على قائله والفتيا بما يلزمه.

وهذا منه ما يجب ومنه ما يستحب بحسب حالات الحاكي لذلك والمحكي عنه فإن كان القائلُ لذلك ممن تصدى لأن يؤخذ عنه العلم أو روايته الحديث أو يُقطع بحكمه أو شهادته أو فتياه في الحقوق وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه والتنفير للناس عنه والشهادة عليه بما قاله، ووجب على مَنْ بلغه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره وبيان كفره وفساد قوله لقطع ضرره عن المسلمين وقيامًا بحق سيّد المرسلين ﷺ.

وكذلك إن كان ممن يعظ العامة أو يؤدب الصبيان فإن من هذه سريره لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي ﷺ ولحق شريعته.

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجب وحماية عرضه متعين ونصرته على الأذى حيًا وميتًا مستحق على كل مؤمن، لكنه إذا قام بهذا مَنْ ظهر به الحق وفصلت به القضية وبان به الأمر سقط عن الباقي الفرض، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة عليه وعَضِدِ التحذير منه، وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث فكيف بمثل هذا؟

وقد سئل أبو محمد ابن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى: أيسعه أن لا يؤدي شهادته؟ قال: إن رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد، وكذلك إن علم أن الحاكم لا يرى القتل بما شهد به ويرى الاستتابة والأدب فليشهد ويلزمه ذلك.

وأما الإباحة لحكاية قوله لغير هذين المقصدين فلا أرى لها مدخلًا في هذا الباب، فليس التفكُّه بعرض رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتمضمض بسوء ذكره لأحد لا ذاكراً ولا آثراً لغير غرض شرعي بمباح. وأما للأغراض المتقدمة فمتردد بين الإيجاب والاستحباب.

وقد حكى الله تعالى مقالاتِ المفترين عليه وعلى رُسُلِهِ في كتابه على وجه الإنكار لقولهم والتحذير من كفرهم والوعيد عليه والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه، وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحة على الوجوه المتقدمة، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين في كتبهم ومجالسهم ليبينوها للناس وينقضوا شبهة عليهم.

فأما ذكرها على غير هذا من حكاية سبه والإزراء بمنصبه على وجه الحكايات والأسفار والطُرف وأحاديث الناس ومقالاتهم في الغث والسمين ومضاحك المُجَّان ونوادر السخفاء والخوض في قيل وقال وما لا يعني فكلُّ هذا ممنوع، وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض.

فما كان من قائله الحاكي له على غير قصد أو معرفة بمقدار ما حكاه أو لم تكن عادته أو لم يكن الكلام من البشاعة حيث هو ولم يظهر على حاكبه استحسانه واستصوابه زجر عن ذلك ونهي عن العودة إليه، وإن قُوم ببعض الأدب فهو مستوجب له، وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشد.

وقد حكى أن رجلاً سأل مالكا عن يقول: القرآن مخلوق فقال مالك: كافر فاقتلوه، فقال: إنما حكيته عن غيري، فقال مالك: إنما سمعناه منك. وهذا من مالك على طريق الزجر والتغليظ بدليل أنه لم ينفذ قتله^(١).

وإن اتهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه ونسبه إلى غيره أو كانت تلك عادة له أو ظهر استحسانه لذلك أو كان مولعاً بمثله والاستخفاف له أو التحفظ لمثله وطلبه ورواية أشعار هجوه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبه فحكم هذا حكم الساب نفسه، يؤخذ بقوله ولا تنفعه نسبته إلى غيره، فيبادر بقتله ويعجل إلى الهاوية أمه.

ورحم الله أسلافنا المتقين المتحرزين لدينهم، فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله، وتركوا روايته إلا أشياء ذكروها يسيرة

(١) شرح أصول الاعتقاد (٢/ ٢٧٥).

وغير مستبشعة على نحو الوجوه الأول لِيُرُوا نِقْمَةَ اللَّهِ مِنْ قَائِلِهَا وَأَخْذَهُ الْمُفْتَرِيَّ عَلَيْهِ بِذَنْبِهِ.

وهذا أبو عبيد القاسم بن سلام قد تحرّى فيما اضْطُرَّ إلى الاستشهاد به من أهاجي أشعار العرب في كتبه، فكُنِيَ عن اسم المهجّو بوزن اسمه استبراءً لدينه وتحفظاً من المشاركة في ذمّ أحد بروايته أو نشره، فكيف بما يتطرق إلى عرض سيّد البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الوجه السادس أن يذكر ما يجوز على النّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يختلف في جوازه عليه وما يطرأ من الأمور البشرية به ويمكن إضافتها إليه أو يذكر ما امْتُحِنَ به وصبر في ذات الله على شدّته من مقاساة أعدائه وأذاهم له ومعرفة ابتداء حاله وسيرته وما لقيه من بؤس زمنه ومر عليه من معاناة عيشته، كلّ ذلك على طريق الرواية ومذاكرة العلم ومعرفة ما صحّت منه العصمة للأنبياء وما يجوز عليهم، فهذا فن خارج عن هذه الفنون الخمسة؛ إذ ليس فيه غمص ولا نقص ولا إزراء ولا استخفاف لا في ظاهر اللفظ ولا في مقصد الالفاظ. فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخْبِراً عن نفسه باستئجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله، وقال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدِ رَعَى الْغَنَمَ»^(١)، وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا لا غضاضة فيه جملةً واحدة لمن ذكره على وجهه بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير، بل كانت عادة جميع العرب، نعم في ذلك للأنبياء حكمة بالغة وتدرّيج لله تعالى لهم إلى كرامته وتدريب

(١) صحيح البخاري (٣/ ٨٨)، وصحيح مسلم (٢/ ١٦٢١).

برعايتها لسياسةٍ أمهم من خليقته بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ومتقدم العلم.

وكذلك قد ذكر الله يُتَمَّه وعيلته على طريق المنة عليه والتعريف بكرامته له، فذكرُ الذاكر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتدئه والتعجب من منَح الله قبْله وعظيم منته عنده ليس فيه غضاضة، بل فيه دلالة على نبوته وصحة دعوته؛ إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومنَ ناوَاه من أشرافهم شيئاً فشيئاً، ونمى أمره حتَّى قهرهم وتمكَّن من ملك مقاليدهم واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم بإظهار الله تعالى له وتأييده بنصره وبالمؤمنين وألَّف بين قلوبهم وإمداده بالملائكة المسوِّمين، ولو كان ابنَ مَلِك أو ذا أشياع متقدِّمين لحسب كثير من الجهال أن ذلك مُوجِبُ ظهوره ومقتضى علوه.

ولهذا قال هرقل حين سأل أبا سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عنه: هل في آبائه من مَلِك؟ ثم قال: ولو كان في آبائه ملك لقلنا: رجل يطلب مُلك أبيه ^(١).

ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ولم يكتب ولم يُدارس ولا لقن مُقتضى العجب ومنتهى العبر ومعجزة البشر، وليس في ذلك نقيصة؛ إذ المطلوب من الكتابة والقراءة المعرفة، وإنَّما هي آلة لها وواسطة مُوصلة إليها غير مرادة في نفسها، فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغني عن الوسطة والسبب.

(١) صحيح البخاري (٨/١)، وصحيح مسلم (٣/١٣٩٣).

كُلُّ هَذَا مِنْ فُضَائِلِهِ وَمَآثِرِهِ وَشَرَفِهِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ، فَمَنْ أورد شيئاً منها مَوْروده وقصد بها مقصده كان حسناً، وَمَنْ أورد ذلك على غير وجهه وعُلِمَ منه بذلك سوء قصده لحق بالفصول التي قَدَّمْنَا.

وكذلك ما ورد مِنْ أخباره وأخبار سائر الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الأحاديث مما في ظاهره إشكال يقتضي أموراً لا تليق بهم بحال وتحتاج إلى تأويل وتردد احتمال، فلا يجب أن يتحدَّث منها إلا بالصحيح ولا يروى منها إلاَّ المعلوم الثَّابِت.

ورحم الله مالِكاً، فلقد كره التحدُّث بمثل ذلك مِنْ الأحاديث الموهمة للتشبيه والمشكلة المعنى، وقال: ما يدعو الناس إلى التحدث بمثل هذا؟ فقليل له: إن ابن عجلان يحدث بها، فقال: لم يكن مِنَ الفقهاء، وليت الناس وافقوه على ترك الحديث بها وساعدوه على طيِّها، فأكثرها ليس تحته عمل.

وقد حُكي عن جماعة من السلف بل عنهم على الجملة أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل، والنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوردتها على قوم عرب يفهمون كلام العرب على وجهه وتصرفاتهم في حقيقته ومجازه واستعارته وبليغته وإيجازه، فلم تكن في حقهم مشكلة.

ثم جاء من غلبت عليه العجمة وداخلته الأمية فلا يكاد يفهم مِنْ مقاصد العرب إلا نصّها وصريحها، ولا يتحقّق إشاراتها إلى غرض الإيجاز ووحياها وتبليغها وتلويحها، ففترّقوا في تأويلها أو حملها على ظاهرها شَذَرَ مَذَرَ، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر.

فأما ما لا يصحُّ من هذه الأحاديث فواجب أن لا يذكر منها شيء في حقِّ الله ولا في حقِّ أنبيائه ولا يُتحدَّث بها ولا يُتكلَّف الكلام على معانيها، والصواب طرحها وترك الشغل بها إلا أن تُذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المقاد واهية الإسناد.



فصل فيما يجب على المتكلم عند ذكر أحواله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المختلفة

ومما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما لا يجوز والذاكر من حالاته ما قدّمناه على طريق المذاكرة والتعليم أن يلتزم في كلامه عند ذكره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذكر تلك الأحوال الواجب من توقيره وتعظيمه، ويراقب حال لسانه ولا يهمله، وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره. فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والارتماض والغیظ على عدوّه ومودة الفداء للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو قدر عليه والنصرة لو أمكنته. وإذا أخذ في أبواب العصمة وتكلّم على مجاري أعماله وأقواله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحرّى أحسن اللفظ وآدب العبارة ما أمكنه، واجتنب بشيع ذلك وهجر من العبارة ما يقبح.

وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملاً في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم فاستعماله في حقّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوجبٌ والتزامه أكد، فجودة العبارة تقبّح الشيء أو تحسّنه، وتحريرها وتهذيبها يعظم الأمر أو يهونه، ولهذا قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن من البيان لسحراً»^(١).

(١) صحيح البخاري (١٩/٧).

فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه فلا حرج في تسريح العبارة وتصريحها فيه، كقوله: لا يجوز عليه الكذبُ جملة ولا إتيانُ الكبائر بوجه ولا الجورُ في الحكم على حال، ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره وتعظيمه وتعزيزه عند ذكره مجردًا، فكيف عند ذكر مثل هذا!!.



فصل : في حكم سابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشأنه ومتنقصه ومؤذيه، وعقوبته وذكر استتابته ووراثته

قد قدمنا ما هو سبٌّ وأذى في حقِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكرنا إجماع العلماء على قتل فاعل ذلك وقائله، وتخيير الإمام في قتله أو صلبه على ما ذكرناه، وقررنا الحجج عليه.

وبعد، فاعلم أنَّ مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء قتلُه حدًّا لا كُفْرًا إنَّ أظهر التَّوبة منه، ولهذا لا تُقبل عندهم توبُّته ولا تنفعه استقالته ولا فيأته كما قدَّمناه قبلُ، وحكمه حكم الزنديق ومسر الكفر في هذا القول، وسواء كانت توبُّته على هذا بعد القدرة عليه والشَّهادة على قوله، أو جاء تائبًا من قبل نفسه، لأنَّه حدٌّ وجب لا تُسقطه التَّوبة كسائر الحدود.

قال أبو الحسن القاسبي: إذا أقرَّ بالسبِّ وتاب منه وأظهر التَّوبة قُتلَ بالسبِّ لأنَّه هو حدُّه. وقال أبو محمَّد ابن أبي زيد مثله^(١). وأمَّا ما بينه وبين الله فتوبُّته تنفعه.

وقال ابن سحنون: مَنْ شتم النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الموحِّدين ثم تاب عن ذلك لم تُزلْ توبُّته عنه القتلُ^(٢).

(١) انظر: النوادر والزيادات (٥١٩/١٤).

(٢) النوادر والزيادات (٥٢٦/١٤).

وكذلك قد اختلف في الزنديق إذا جاء تائبًا، فحكى القاضي أبو الحسن ابن القصار في ذلك قولين، قال: من شيوخنا من قال: أقتله بإقراره لأنه كان يقدر على ستر نفسه فلما اعترف خفنا أنه خشي الظهور عليه فبادر لذلك، ومنهم من قال: أقبل توبته لأنني أستدلُّ على صحتها بمجيئه، فكأننا وقفنا على باطنه بخلاف من أسرته البيئة^(١).

ومسألة سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقوى، لا يُتصور فيها الخلاف على الأصل المتقدم؛ لأنه حق متعلق للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمته بسببه، لا تسقطه التوبة كسائر حقوق الأدميين.

والزنديق إذا تاب بعد القدرة عليه فعند مالك والليث وإسحاق وأحمد لا تُقبل توبته، وعند الشافعي تُقبل، واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف.

وقال أبو عمران الفاسي^(٢): من سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم ارتد عن الإسلام قتل ولم يستتب، لأن السب من حقوق الأدميين التي لا تسقط عن المرتد.

هذا حكم من ثبت عليه ذلك بما يجب ثبوته من إقرار أو عدول لم يدفع فيهم.

(١) النوادر والزيادات (١٤/٥١٩)، البيان والتحصيل (١٦/٤٤٤).

(٢) فقيه أهل الأندلس. نقل المؤلف القاضي عياض عن حاتم بن محمد قوله: «كان أبو عمران من أعلم الناس، وأحفظهم، جمع حفظ المذهب المالكي إلى حفظ حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعرفة معانيه. وكان يقرئ القرآن بالسبعة، ويجوده. مع معرفته بالرجال وجرحتهم، وتعديلهم». توفي سنة ٤٣٠ هـ. انظر: ترتيب المدارك (٧/٢٤٣-٢٥٢).

فصل

فأما من لم تتم الشهادة عليه بما شهد عليه الواحد أو الليف من الناس أو ثبت قوله لكن احتمل ولم يكن صريحاً وكذلك إن تاب على القول بقبول توبته فهذا يُدْرَأُ عنه القتلُ ويتسلَّط عليه اجتهادُ الإمام بقدرِ شُهرة حاله وقوة الشهادة عليه وضعفها وكثرة السماع عنه وصورة حاله من التهمة في الدين والنَّبرِ بالسَّفَه والمجون، فَمَنْ قَوِيَ أمرُه أذاقه من شديد النكال من التضيق في السجن والشدِّ في القيودِ إلى الغاية التي هي منتهى طاقته ممَّا لا يمنعه القيامَ لضرورته ولا يُقْعِدُهُ عن صلاته. وهو حكمٌ كلِّ مَنْ وجب عليه القتل لكن وَقَفَ عَنْ قتلِهِ لمعنى أوجبه وتُرَبِّصَ به لإشكال وعائق اقتضاه أمرُه، وحالاتُ الشدَّة في نكاله تختلفُ بحسب اختلاف حاله.

وقال القابسي في مثل هذا: وَمَنْ كان أقصى أمره القتلُ فعاق عائقُ أشكل في القتل لم ينبغ أن يطلق من السجن، ويستطال سجنه ويحمل عليه من القيد ما يُطيق. وقال في مثله مِّنْ أشكل أمرُه: يُشَدُّ في القيود شَدًّا وَيُضَيَّق عليه في السجن حتَّى يُنْظَرَ فيما يجب عليه.



فصل

فأما الذمّي إذا صرّح بسبّه أو عرّض أو استخفّ بقدره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو وصفه بغير الوجه الذي كفر به فلا خلاف عندنا في قتله إن لم يُسلم؛ لأننا لم نُعطه الذمّة أو العهد على هذا، وهو قولُ عامّة العلماء إلا أبا حنيفة والثوريّ وأتباعهما من أهل الكوفة فإنّهم قالوا: لا يُقتل لأن ما هو عليه من الشّرك أعظم، ولكن يُؤدّب ويُعزّر.

واستدلّ بعضُ شيوخنا على قتله بقوله تعالى: ﴿وإن تكفروا أيمنهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقلنوا أيمة الكفّر إنهم لا أيمن لهم لعالمهم ينتهون﴾.

ويُستدلّ أيضًا عليه بقتل النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن الأشرف وأشباهه، ولأننا لم نُعاهدْهم ولم نُعطهم الذمّة على هذا، ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم، فإذا أتوا ما لم يُعطوا عليه العهد ولا الذمّة فقد نقضوا ذمتهم وصاروا كفارًا أهل حرب يقتلون لكفرهم.

وأيضًا فإن ذمتهم لا تسقط حدود الإسلام عنهم من القطع في سرقة أموالهم والقتل لمن قتلوه منهم وإن كان ذلك حلالًا عندهم، فكذلك سبهم للنبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقتلون به.

واختلفوا إذا سبه ثم أسلم، فقيل: يُسقط إسلامه قتله؛ لأن الإسلام يجب ما قبله بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب، لأننا نعلم باطنة الكافر في بغضه له وتنقصه بقلبه، لكننا منعناه من إظهاره، فلم يزدنا ما أظهره إلا مخالفة للأمر ونقضاً للعهد، فإذا رجع عن دينه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله. قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، والمسلم بخلافه؛ إذ كان ظننا بباطنه حكم ظاهره وخلاف ما بدا منه الآن، فلم نقبل بعد رجوعه ولا استئمننا إلى باطنه إذ قد بدت سرائره، وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لم يسقطها شيء.

وقيل: لا يسقط إسلام الذمي الساب قتله؛ لأنه حق للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجب عليه لانتهاكه حرمة وقصده إلحاق النقيصة والمعرّة به، فلم يكن رجوعه إلى الإسلام بالذي يسقطه كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل وقذف، وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فأن لا نقبل توبة الكافر أولى.

قال مالك وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ فيمن شتم نبينا من أهل الذمة أو أحداً من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام: قُتِلَ إِلَّا أَنْ يَسْلَمَ^(١).

وقد روى ابن وهب عن ابن عمر أن راهباً تناول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال ابن عمر: فهلا قتلتموه^(٢).

(١) انظر في كل ذلك: النوادر (١٤/ ٥٢٨-٥٢٩).

(٢) أخرجه ابن وهب في كتاب المحاربة من موطنه، وانظر: النوادر والزيادات (١٤/ ٥٢٠).

وروى عيسى عن ابن القاسم في ذمِّي قال: إِنَّ مُحَمَّدًا لم يُرْسَل إلينا إنما أُرْسِلَ إليكم وإنما نبينا موسى أو عيسى ونحو هذا لا شيء عليهم؛ لأن الله تعالى أقرهم على مثله، وأمّا إن سبه فقال: ليس بنبيٍّ أو لم يُرْسَل أو لم ينزل عليه قرآن، وإنما هو شيءٌ تقوّله أو نحو هذا فيُقتل^(١).

قال محمد بن سحنون: فإن قيل: لم قتلته في سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن دينه سبه وتكذيبه؟ قيل: لأننا لم نعطهم العهد على ذلك ولا على قتلنا وأخذ أموالنا، فإذا قتل واحداً منا قتلناه وإن كان من دينه استحلأه، فكذلك إظهاره لسب نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال سحنون: كما لو بذل لنا أهل الحرب الجزية على إقرارهم على سبه لم يجز لنا ذلك في قول قائل، كذلك يتنقض عهد من سب منهم ويحل لنا دمه. وكما لم يحصن الإسلام من سبه من القتل كذلك لا تحصنه الذمة^(٢).

وحكى أبو المصعب الزهري قال: أُتيتُ بنصرانيٍّ قال: والذي اصطفى عيسى على محمد، فاختلف عليّ فيه فضربته حتى قتلته أو عاش يوماً وليلة، وأمرت من جر برجله وطرح على مزبلة فأكلته الكلاب. وسئل أبو المصعب عن نصرانيٍّ قال: عيسى خلق محمداً فقال: يُقتل^(٣).

وقال ابن القاسم: سألتنا مالكا عن نصرانيٍّ بمصر شهد عليه أنه قال: مسكين محمد يخبركم أنه في الجنة، ما له لم ينفع نفسه؟ إذ كانت الكلاب تأكل

(١) النوادر والزيادات (١٤/٥٣٠).

(٢) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٨).

(٣) نقله المقرئ في إمتاع الأسماع (١٤/٤٠٥).

ساقيه، لو قتلوه استراح منه الناس، قال مالك: أرى أن تُضرب عنقه، قال: ولقد كدت أن لا أتكلم فيها بشيء ثم رأيت أنه لا يسعني الصمت^(١).

قال ابن كنانة في المبسوطة: من شتم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اليهود والنصارى فأرى للإمام أن يحرقه بالنار، وإن شاء قتله ثم حرق جثته، وإن شاء أحرقه بالنار حيًّا إذا تهافتوا في سبه، ولقد كُتب إلى مالك من مصر -وذكر مسألة ابن القاسم المتقدمة- قال: فأمرني مالك فكتبت بأن يقتل وتضرب عنقه، فكتبت ثم قلت: يا أبا عبد الله، وأكتب ثم يحرق بالنار؟ فقال: إنه لحقيق بذلك، وما أولاه به! فكتبته بيدي بين يديه، فما أنكره ولا عابه، ونفذت الصحيفة بذلك فقتل وحرق.

وقال أبو القاسم ابن الجلاب^(٢): من سبَّ الله ورسوله من مسلم أو كافر قتل ولا يستتاب^(٣).

وحكى القاضي أبو محمد في الذمي يسبُّ ثم يسلم روايتين في درء القتل عنه بإسلامه، وقال ابن سحنون: وحدُّ القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي إسلامه، وإنَّما يسقط عنه بإسلامه حدودُ الله، فأما حدُّ القذف فحقُّ للعباد كان ذلك لنبيٍّ أو غيره، فأوجب على الذمي إذا قذف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أسلم حدُّ القذف.

(١) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٧).

(٢) عبيد الله بن الحسن أبو القاسم ابن الجلاب، تفقه بالأبهرى، وكان أحفظ أصحاب الأبهرى وأنبلهم، مات سنة ٣٧٨هـ. انظر: ترتيب المدارك (٧/٧٦)، الديباج المذهب (١/٤٦١).

(٣) التفريع لابن الجلاب (٢/٢٣٢).

فصل في ميراث من قُتل في سبِّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغسله والصلاة عليه

اختلف العلماء في ميراث مَنْ قُتل بسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذهب سحنون إلى أنه لجماعة المسلمين من قَبْل أن شتم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُفر يشبه كفر الزنديق. وقال أصبغ: ميراثه لورثته من المسلمين إن كان مُستسِرًّا بذلك، وإن كان مُظْهِرًا له مُسْتَهْلًا به فميراثه للمسلمين، ويقتل على كل حال ولا يستتاب ^(١).

قال أبو الحسن القاسبي: إن قُتل وهو مُنكِر للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره، يعني لورثته، والقتلُ حدُّ ثبت عليه ليس من الميراث في شيء، وكذلك لو أقرَّ بالسبِّ وأظهر التوبة لقتل؛ إذ هو حدُّه، وحكمه في ميراثه وسائر أحكامه حكمُ الإسلام، ولو أقرَّ بالسبِّ وتمادى عليه وأبى التوبة منه فقتل على ذلك كان كافرًا وميراثه للمسلمين، ولا يغسل ولا يصلى عليه ولا يكفن وتستر عورته ويوارى كما يفعل بالكفار.

وقول الشيخ أبي الحسن في المجاهر المتماذي بئِن لا يمكن الخلاف فيه؛ لأنه كافر مرتد غير تائب ولا مقلع، وهو مثل قول أصبغ.

وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق يتماذى على قوله، ومثله لابن القاسم في العتبية، وجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله.

(١) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٤).

قال ابن القاسم: وحكمه حكم المرتد لا ترثه ورثته من المسلمين ولا من أهل الدين الذي ارتد إليه، ولا تجوز وصاياه ولا عتقه، وقاله أصبغ، قتل على ذلك أو مات عليه^(١).

وقال أبو محمد ابن أبي زيد: وإنما يختلف في ميراث الزنديق الذي يستهل بالتوبة فلا تقبل منه، فأما المتهادي فلا خلاف أنه لا يورث^(٢).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وابن مسعود وابن المسيب والحسن والشعبي وعمر بن عبد العزيز والحكم والأوزاعي والليث وإسحاق وأبو حنيفة: يرثه ورثته من المسلمين.

وروى أصبغ عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيمن كذب برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو أعلن ديناً مما يفارق به الإسلام أن ميراثه للمسلمين. وقال بقول مالك: «إن ميراث المرتد للمسلمين ولا ترثه ورثته» ربيعة والشافعي وأبو ثور وابن أبي ليلى واختلف فيه عن أحمد^(٣).

وسئل أبو القاسم ابن الكاتب^(٤) عن النصراني يسبُّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقتل هل يرثه أهل دينه أم المسلمون؟ فأجاب أنه للمسلمين ليس على جهة

(١) النوادر والزيادات (١٤/٥٢٠-٥٢١).

(٢) المصدر السابق (١٤/٥٢٣).

(٣) النوادر والزيادات (١٤/٥٠٨)، الأم (٤/٨٧).

(٤) أبو القاسم عبد الرحمن بن علي بن محمد الكناني، المعروف بابن الكاتب، نقل المؤلف عن =

الميراث لأنه لا توارث بين أهل ملّتين، ولكن لأنه من فيئهم لنقضه العهد،
هذا معنى قوله واختصاره^(١).



= ابن سعدون قوله: «كان مشهوراً بالعلم والفقه والنظر وفضله مشهور»، ثم قال: «وله كتاب كبير في الفقه، نحو مائة وخمسين جزءاً». ترتيب المدارك (٢٥٣/٧).
(١) انظر: النوادر والزيادات (٥٠٨/١٤).

هنا انتهى القول بنا فيما حرّره وانتجز الغرض الذي انتحينا، واستوفي الشرط الذي شرطناه، مما أرجو أن في كل قسم منه للمريد مقنعاً، وفي كلّ بابٍ منهجاً إلى بُغْيَتِهِ وَمَنْزَعًا.

وقد سَفَرْتُ فيه عن نكت تستغرب وتستبدع، وكرعتُ في مشاربٍ من التحقيق لم يوردها قبل في أكثر التصانيف مشرع، وأودعته غير ما فصل وددت لو وجدت من بسط قبلي الكلام فيه أو مقتدًى يفيدني عن كتابه أو فيه لأكتفي بما أرويه عما أروّيه.

وإلى الله تعالى جزيلاً الضراعةِ والمنة بقبول ما منه لوجهه، والعفو عما تخلله من تزين وتصنع لغيره، وأن يهب لنا ذلك بجميل كرمه وعفوه، لما أودعناه من شرف مصطفىاه وأمين وحيه، وأسهرنا به جفوننا لتتبع فضائله، وأعملنا فيه خواطرنا من إبراز خصائصه ووسائله، ويحمي أعراضنا عن ناره الموقدة لحمايتنا كريم عرضه، ويجعلنا ممن لا يذاد إذا زيد المبدل عن حوضه، ويجعله لنا ولن تهمل باكتتابه واكتسابه، سبباً يصلنا بأسبابه، وذخيرةً نجدها يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، نحوز بها رضاه وجزيل ثوابه، ويخصنا بخصيصي زمرة نبينا وجماعته، ويحشرنا في الرعيل الأول وأهل الباب الأيمن من أهل شفاعته.

ونحمده تعالى على ما هدى إليه من جَمْعِهِ وألهم، وفتح البصيرة لدرك حقائق ما أودعناه وفهّم، ونستعيذه جل اسمه من دعاء لا يسمع، وعلم

لا ينفع، وعمل لا يرفع، فهو الجواد الذي لا يخيب من أمله، ولا ينتصر من خذله، ولا يرد دعوة القاصدين، ولا يصلح عمل المفسدين، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلاته على سيدنا ونبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليماً كثيراً، والحمد لله ربّ العالمين.



فهرس المحتويات

٩.....	مقدمة.....
	الباب الأول: في ثناء الله تعالى عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإظهاره عظيم قدره لديه.....
١١.....	فصلٌ فيما جاء من ذلك مجيء المدح والثناء وتعداد المحاسن.....
١٣.....	فصلٌ في وصفه تعالى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشهادة وما يتعلق بها من الثناء والكرامة.....
١٧.....	فصلٌ فيما ورد من خطابه إياه مورد الملاطفة والمبرّة.....
٢٠.....	فصلٌ في قسمه تعالى بعظيم قدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
٢٣.....	فصلٌ في قسمه تعالى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتحقيق مكانته عنده.....
٢٤.....	فصلٌ فيما ورد من قوله تعالى في جهته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مورد الشفقة والإكرام.....
٢٨.....	فصلٌ فيما أخبر الله تعالى به من عظيم قدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشريف منزلته على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَام
٣٠.....	فصلٌ في إعلام الله تعالى خلقه بصلاته عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وولايته له ورفع العذاب بسببه.....
٣٢.....	فصلٌ فيما تضمنته سورة الفتح من كراماته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
٣٥.....	

فصلٌ فيما أظهره الله تعالى في كتابه العزيز من كرامته عليه ومكانته عنده	
وما خصَّه به.....	٣٧
الباب الثاني: في تكميل الله تعالى له ﷺ المحاسن خلقاً	
وخلقاً وقرانه جميع الفضائل الدينية والدنيوية فيه نسقاً.....	٣٩
فصلٌ فيه أنه اجتمع فيه ﷺ من خصال الكمال ما يشرف غيره	
بواحدة منها.....	٤٣
فصلٌ في صفاته ﷺ الخلقية.....	٤٥
فصل في نظافة جسمه ﷺ وطيب ريحه وعرقه ونزاهته عن	
عورات الجسد.....	٤٨
فصل في وفور عقله ﷺ وقوة حواسه.....	٥٠
فصل في فصاحة لسانه ﷺ وبلاغة قوله.....	٥١
فصل.....	٥٣
فصل.....	٥٥
فصل.....	٥٧
فصل في أخلاقه ﷺ.....	٦٠
فصل في حلمه ﷺ وعفوه وصبره.....	٦٣
فصل في جوده ﷺ وكرمه وسماحته.....	٦٤
فصل في شجاعته ﷺ ونجدته.....	٦٦
فصل في حياته ﷺ وإغضائه.....	٦٨
فصل في حسن عشرته ﷺ وأدبه.....	٧٠

فصل في شففته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورأفته ورحمته لجميع الخلق.....	٧٢
فصل في وفائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسن عهده وصلة رحمه.....	٧٥
فصل في تواضعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.....	٧٧
فصل في عدله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمانته وعفته وصدق لهجته.....	٧٩
فصل في وقاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصمته وتؤدته ومروءته وحسن هديه.....	٨٠
فصل في زهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا.....	٨٢
فصل في خوفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه وطاعته له وشدة عبادته.....	٨٤
الباب الثالث: فيما ورد من صحيح الأخبار ومشهورها بعظيم	
قدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه ومنزلته وما خصه به في الدارين	
من كرامته.....	٨٧
فصل في تفضيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما تضمنته كرامة الإسراء من المناجاة	
والرؤية وإمامة الأنبياء والعروج به إلى سدرة المنتهى وما رأى من	
آيات ربه الكبرى.....	٩٢
فصل في تفضيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمحبة والخلة.....	٩٦
فصل في ذكر تفضيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في القيامة بخصوص الكرامة.....	٩٧
فصل في تفضيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالشفاعة والمقام المحمود.....	٩٩
فصل في تفضيله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة	
والكوثر والفضيلة.....	١٠٤
فصل في أسنائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما تضمنته من فضيلته.....	١٠٦

الباب الرابع: فيما أظهره الله تعالى على يديه ﷺ

- ١١١..... من المعجزات وشرفه به من الخصائص والكرامات
- ١١٤..... فصل في معنى النبوة والرسالة والوحي
- ١١٦..... فصل في معنى المعجزة
- ١١٨..... فصل في إعجاز القرآن
- ١٢٣..... فصل
- ١٢٦..... فصل
- ١٢٩..... فصل
- ١٣١..... فصل
- ١٣٣..... فصل
- ١٣٦..... فصل
- ١٣٧..... فصل وجوه أخرى للإعجاز
- ١٤٠..... فصل انشقاق القمر
- ١٤١..... فصل في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ﷺ
- ١٤٥..... فصل
- فصل في كلام الشجر وشهادتها له ﷺ بالنبوة وإجابتها
- ١٤٨..... دعوته
- ١٥٠..... فصل في قصة حنين الجذع
- ١٥١..... فصل فيما جاء في الطعام والشجر والحجر
- ١٥٢..... فصل في الآيات في ضروب الحيوانات

١٥٤.....	فصل في إبراء المرضى وذوي العاهات
١٥٥.....	فصل في إجابة دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
	فصل في كرامته وبركاته وانقلاب الأعيان له فيما لمسه أو
١٥٨.....	بأشهره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
١٦١.....	فصل
١٦٨.....	فصل في عصمة الله تعالى له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الناس وكفايته من آذاه
	الباب الخامس: في فرض الإيمان به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووجوب طاعته
١٧٣.....	واتباع سنته
١٧٨.....	فصل في وجوب طاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
	فصل فيما ورد عن السلف والأئمة من اتباع سنته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
١٨٣.....	والاقتداء بهديه وسيرته
١٨٦.....	فصل
١٨٧.....	الباب السادس: في لزوم محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
١٩١.....	فصل في ثواب محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
	فصل فيما روي عن السلف والأئمة من محبتهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
١٩٢.....	وشوقهم له
١٩٣.....	فصل في علامة محبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
١٩٧.....	فصل في معنى المحبة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقيقتها
١٩٨.....	فصل في وجوب مناصحته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

٢٠١.....	الباب السابع: في تعظيم أمره ﷺ ووجوب توقيره وبره.....
٢٠٦.....	فصل في عادة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله.....
٢٠٨.....	فصل في أن حرمة ﷺ وتوقيره بعد موته لازم كما كان حال حياته.....
٢١١.....	فصل في سيرة السلف في تعظيم رواية حديث رسول الله ﷺ وسنته.....
٢١٤.....	فصل.....
٢١٧.....	فصل.....
٢٢١.....	الباب الثامن: في حكم الصلاة عليه ﷺ والتسليم وفرض ذلك وفضيلته.....
٢٢٥.....	فصل في حكم الصلاة على النبي ﷺ.....
٢٢٧.....	فصل في المواطن التي يستحب فيها الصلاة والسلام على النبي ﷺ.....
٢٣١.....	فصل في كيفية الصلاة عليه ﷺ والتسليم.....
٢٣٣.....	فصل في فضيلة الصلاة على النبي ﷺ والتسليم عليه والدعاء له.....
٢٣٥.....	فصل في ذم من لم يصل على النبي ﷺ وإثمه.....

فصل في تخصيصه ﷺ بتبليغ صلاة من صلى عليه أو سلم	
من الأنام.....	٢٣٦
فصل في الاختلاف في الصلاة على غير النبي ﷺ وسائر	
الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.....	٢٣٧
فصل فيما يلزم من دخل مسجد النبي ﷺ من الأدب وفضله	
وفضل الصلاة فيه.....	٢٣٩
الباب التاسع: فيما يجب للنبي ﷺ وما يستحيل في حقه	
أو يجوز عليه وما يمتنع أو يصحّ من الأحوال البشرية أن	
يضاف إليه.....	٢٤١
فصل فيما يختصّ بالأمور الدينية والكلام في عصمة نبينا ﷺ.....	٢٤٥
فصل.....	٢٤٨
فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما طريقه البلاغ.....	٢٥١
فصل في أنه ﷺ معصوم في أقواله وأفعاله فيما ليس طريقه	
البلاغ كذلك.....	٢٥٢
فصل في المباحات من تصرفاته ﷺ.....	٢٥٤
فصل فيما يخصه ﷺ في الأمور الدنيوية وما يطراً عليه من	
العوارض البشرية.....	٢٥٦
فصل في الجواب عن كون النبي ﷺ سُحْرَ.....	٢٥٩
فصل فيما يعتقده ﷺ في أمور أحكام البشر الجارية على يديه.....	٢٦١

٢٦٣.....	فصل في الإجابة على بعض الشُّبه في ذلك
٢٦٧.....	فصل في أفعاله ﷺ الدنيوية
	فصل في الكلام على الحكمة في إجراء الأمراض وشدتها عليه
٢٧٠.....	ﷺ وعلى غيره من الأنبياء من قبل
	الباب العاشر: في تصرف وجوه الأحكام فيمن تنقصه
٢٧٣.....	أو سبّه ﷺ
	فصل في بيان ما هو في حقه ﷺ سَبٌّ أو نَقْصٌ من تعريض
٢٧٨.....	أو نص
٢٨٤.....	فصل في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه ﷺ
٢٨٨.....	فصل في أسباب عدم قتل النبي ﷺ لبعض من سبّه أو تنقصه
٢٩٤.....	فصل
٣٠٦.....	فصل فيما يجب على المتكلم عند ذكر أحواله ﷺ المختلفة
	فصل في حكم سابه ﷺ وشأنه ومتنقصه ومؤذيه، وعقوبته
٣٠٨.....	وذكر استتابته ووراثته
٣١٠.....	فصل
٣١١.....	فصل
	فصل في ميراث مَنْ قُتِلَ في سبِّ النبي ﷺ وغسله
٣١٥.....	والصلاة عليه
٣٢١.....	محتويات الكتاب

